ابن رشد في أدبه

للدكتور عبد الكريم خليفة

مقدمة

تهدف هذه الدراسة الى القاء الضوء على جانب مهمّ من جوانب انتاج عَلَم من اعلام الفكر في حضارتنا العربية الاسلامية ؛ وهذا الجانب يتمثل في « ادب » ابن رشد ، وهو واحد من اشهر الكتّاب ومن اكثرهم خصبا وانتاجا .

وان هذه الدراسة شائكة في نظرنا ، وذلك لصعوبة الفصل بين مجال الفكر والفلسفة من ناحية، والادب من ناحية اخرى . فان مفاهيم الادب وتعريفاته تتعدد وتختلف باختلاف الاتجاهات الفكرية والثقافية والاجتماعية عند الباحثين . وربما كان اهمّ من ذلك كلّه ان نصل الى مفهوم الادب عند الكاتب ذاته . ليس من السهل ان تحدد مفهوم الادب عند ابن رشد ، دون النظر في فلسفته وفي مفهوم الادب عند معلمه الاول « ارسطو » .

اليس من الخطأ ان تعتبر مفهوما واحدا للأدب ، تحاول إقحامه على جميع انشطة الفكر الانساني ؟ ... الا تتداخل مفاهيم الادب هذه بألوانه ومذاهبه ؟ ..

لا شكّ ان هنالك فرقاً كبيراً بين ادبٍ واقعيّ تحتل فيه جدّيّة الفكر مكانة ممتازة ، وادبٍ لاهٍ يُضفي عليه الاديب رونق النكتة والظرف .

فقد كان ابن رشد جادّاً ، وكانت الدراية اغلب عليه من الرواية . وبلغت جِدّيّته الى الحد الذي عبّر عنه صاحب كتاب التكملة بقوله : « ... وعُنِيَ بالعلم من صغره الى كبره، حتى حُكيَ عنه انه لم يدع النظر ولا القراءة منذُ عَقِلَ الا ليلة وفاة ابيه ، وليلة بنائه على اهله ... وانه سَوَّدَ في ما صنّفَ وقيّدَ وألّفَ وهذّب واختصر نحواً من عشرة آلاف ورقة . ومال الى علوم الأوائل، فكانت لم فيها الامامة دون اهل

عصره » (١) .ونحن لا يهمّنا في هـذا المجال مدى دقة هذه الروايـة ، ولكنّ ما توحي بـه من نظرة ابن رشد الجادّة الـى الحياة وتحكيمه العقل ، وذلـك بغلبة الدراية عنده على الروايـة ...

فاذا نظرنا مثـلا الى المساجلة الفكرية باعتبارها احـد الفنون الأدبية الراقية ، الا يحقُّ لنـا ان نُصنِّفَ في اطارها تلـك المساجلة التي دارت بين ابن رشـد والغزالي ؟ فقد وصفها العقـاد بقوله : « فلـم يحفظ لنـا تاريخ الفكر مساجلة بين حكيمين في قـوة المساجلة التي دارت بـين ابن رشـد والغزالي،ومضاء سلاحها،ونفـاذ حججها وبراهينهـا ... » (٢) .

وهنـا يشير الكاتب في الواقع الـى معركتين فكريتين مـا زال اثرهما العميق في التفكير الفلسفي الاسلامي . فقد اثـار الأولى الغزالي في كتابه : « تهافـت الفلاسفة » واثـار الثانية ابن رشـد بكتابه : « تهافـت التهافـت » .

وبالرغم من أن ابن رشـد قد ذاع صيته لـدى الافرنج في مجالين اساسيين من المعرفـة ، هما الطبّ والفلسفة ، فـانّ جوانبه الفكريّة والثقافية الأخرى لـم تكن اقل إشراقا ؛ فهو على حـد تعبير بعض الروايات ، كمـا سنرى فيما بعد : « كـان يُفْزَع الى فتواه في الطـبّ كما يُفْزَع الى فتواه في الفقه ، مع الحظ الوافر من الاعراب والآداب » (٣) .

وإنّ الدارس للحركة العلميـة في ذلك العصر ، لا يَعجَب من هـذا كله،فقد عاش ابن رشـد في بيئة علمية عاليـة جمعت مشاهير عصره ، يعينه في ذلك طبـعٌ مؤاتٍ واستعداد فطريّ اصيـل .

امّـا في مجال الحركة العلمية فـي الأندلس ، ورغبةِ اهلهـا في العلم ، فنحن نستذكر مـا اورده المقّري ، اذ قال : « وامّـا حال اهل

---

(١) التكملـة ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ .
(٢) العقـاد ، ص ٥٥ .
(٣) فـرح ، ص ٢٧ .

الاندلس في فنون العلـــم ، فتحقيق الانصاف في شانهم في هـــذا الباب ، انهم احرص النـــاس على التميّز : فالجاهل الذي لم يوفّقه اللـــه للعلم يجهد ان يتميّز بصنعـــه ، ويربأ بنفسه ان يُرى فارغـــا عالة على الناس ، لان هـــذا عندهم في غاية القبح،والعالـــم عندهم معظَّمٌ من الخاصـــة والعامة ... فالعالم منهـــم بارع ، لانه يطلب ذلك العلـــم بباعث من نفسه ، يحمله علـــى ان يترك الشغل الذي يستفيد منـــه ، وينفق ما عنده حتى يعلـــم . وكلّ العلوم لها عندهم حـــظّ واعتناء الا الفلسفة والتنجيم ، فان لهمـــا حظّاً عظيما عند خواصّهم ، ولا يُتظاهَر بهـــا خوف العامة . فانّه كلّمـــا قيل « فلان يقرأ الفلسفة » او « يشتغـــل بالتنجيم » اطلقت عليه اســـم زنديق ، وقيّدت عليه انفاسه . فـــان زلّ في شبهة رجموه بالحجارة او حرقوه قبـــل ان يصل امره للسلطان ، او يقتلـــه السلطان تقرّباً لقلوب العامـــة.وكثيرا ما يأمر ملوكهم باحراق كتـــب هذا الشان اذا وجـــدت ... » (٤) .

إنّ ظاهرة التضييق علـــى حرية الفكر ، التي اشـــار اليها المقّري ، قد اصابت بلهيبها ابن رشـــد ذاته في محنته التي حلّت بـــه في أخريات عمره ؛ وإنَّ هـــذه الظاهرة لم تكن في الحقيقة لتقتصر علـــى الاندلس ، بل امتدّت من مشرق دار الاســـلام الى مغربه الأقصى ، وذلـــك في فترات معيّنـــة .

ولـــو القينا نظرة علـــى احداث الفترة الزمنية التي لقي بها ابـــن رشد محنته ، لوجدنا امثلـــة كثيرة في هراة وواسط ودمشق وبغداد (٥) .

اسمه ونسبـــه وكنيته :

هو محمـــد بن ابي القاسم احمـــد ابن أبي الوليد محمـــد بن احمد بن رشد ، يكنى ابـــا الوليد . وهو حفيد قاضـــي الجماعة بقرطبة . (٦) .

---

(٤) النفـــح ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .
(٥) انظـــر العبـــر ، ج ٤ ، ص ٢٨٥ .
(٦) النباهي ، ص ١١١ . انظـــر : ابن ابي اصيبعة ، ص ٥٣٠ ، ج ١ ، ص ١٠٥ .

ولـد بقرطبة سنة ٥٢٠ هـ. ١١٢٦ م. وادرك مـن حياة جَدّه شهرا سنة عشريـن (٧) . وقد اشتهر في اوروبـا في القرون الوسطى باسـم AVEROES (٨) .

نشأ ابـن رشد في بيت علـم وفضل ، وكان ابوه احمد بن محمد بن احمد بن رشد ابـو القاسم ، قد تولّى القضاء (٩) . وتتحدّث المصـادر عن نشأة ابي القاسم هذا ، فتقول : « إنه من اهل بيت فقـه وعلم » (١٠). وربما ساهمت شهرة ابـن رشد الحفيد وابن رشد الجَـدّ ، في قلّة المعلومات التي وصلتنا عن ابـي القاسم . وتوفي والـد ابن رشد سنة ٥٦٣ هـ. (١١) . وهـذا يعني أن الأديب الفيلسوف ابن رشـد ، قد ذاعت شهرته العلميـة في حياة والـده .

أما جَدُّه محمـد بن احمد بن احمد بن رشـد (١٢) فيُروَى ان اصلـه من بلـدة سرقسطة (١٣) . وكان قاضـي الجماعة بقرطبة ، وصاحِبَ الصلاة بالمسجـد الجامع بها ، يكنى ابـا الوليد ... وكان قطبها ،عالما حافظا للفقـه ، مقدَّمًا فيه على جميع اهـل عصره ، عارفًا بالفتوى على مذهب مالك واصحابـه ، بصيرًا باقوالهم واتّفاقهـم واختلافهم ، نافذا في علـم الفرائض والأصول ، من اهـل الرياسة في العلم والبراعة والفهم مع الديـن والفضل والوقار والحلم والسمت ، والهدي الصالح .

ويستمرّ صاحب كتـاب الصلة فيقول :"سمعت الفقيه ابـا مروان عبد الملك بـن مسرة صاحبنا اكرمه اللـه ، ومكانه من العلم والفضل والثقة مكانه ، يقـول : شاهدت شيخنا القاضي ابـا الوليد رحمه اللـه يصوم يوم الجمعة دائمـا في الحضر والسفر" (١٤) .

---

(٧) العبـر ، ج ٤ ، ص ٢٨٧ ، شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٣٢٠ .

(٨) Encyclo . Vol. II , P. 410 - 413

(٩) المصـدر نفسـه .

(١٠) بغيـة الملتمس ، ص ١٥٦ .

(١١) المصـدر نفسـه .

(١٢) النباهـي ، ص ٩٨ .

(١٣) الصلـة ، ج ٢ ، ص ٥٧٦ ، حسن حابش الأصل ، قـال عمر بن دحية : اصله من بلـدة سرقسطة .

(١٤) الصلـة ، ج ٢ ، ص ٥٧٦ : النباهـي ، ص ٩٨ .

ولـد ابو الوليد ابن رشد (الجـد) في شوال سنة ٤٥٠ هـ. (١٥) . وقد روى عن أبـي جعفر أحمد بن رزق الفقيه ، وعـن أبي مروان ابن سراج ، وأبي عبد اللـه بن خيرة ، وأبي عبد اللـه محمد بن فرج ، وأبي علـي الغساني ، وأجاز لـه ابو العباس العذري ما رواه (١٦) .

وتَقلَّد ابـو الوليد القضاء بقرطبة ، وسار فيه على حـدّ تعبير الروايـة بأحسن سيرة وأقوم طريقة ، ثـم استعفى عنه فأعفـى ؛ ونشر كتبـه وتواليفه ومسائله وتصانيفه (١٧) . ومـن تواليفه كتاب المقدمـات الأوائـل كتب المدوَّنـة ، وكتاب البيان والتحصيل لمـا في المستخرجة من التوجيـه والتعليل ، واختصار المبسوطـة ، واختصار مشكل الآثـار للطحاوي الى غير ذلك من تواليفه . ويعقّـب على ذلك صاحب كتاب الصلـة بقوله : « سمعنا عليـه بعضها ، وأجاز لنـا سائرهـا » (١٨) .

ومن مؤلفاته ايضـا ، « الفتاوى » (١٩) . فقد جمـع ابن الفرضي شيخ الجامع الكبير فـي قرطبة فتاوى ابي الوليد ابـن رشد (الجدّ) ، في كتاب خَطّـي (٢٠) . ولا شك ان هذه المكانـة العلمية الرفيعة التي كان يشغلها الجـد ، قد كان لها آثارهـا العميقة وطوابعها الواضحة في شخصية ابـن رشد (الحفيد) وتكوينه العلمـيّ والثقافيّ . وتوفي ابو الوليد ابن رشد (الجـد) ، ليلة الأحد ، ودفـن عشي يوم الأحد الحادي عشر مـن ذي القعدة سنة عشرين وخمسمائـة ، ودفن بمقبرة العباس ، وصلّى عليه ابنه ابـو القاسم ، وشهده جمـع عظيم من الناس ؛ وكـان الثناء عليه حسنا جميلا (٢١) . وهكذا فقد ولـد أبو

---

(١٥) الصلـة ، ج ٢ ، ص ٥٧٧ .
(١٦) المصـدر نفسـه .
(١٧) النباهـي ، ص ٩٩ ، الصلـة ، ج ٢ ، ص ٥٧٧ .
(١٨) الصلـة ، ج ٢ ، ص ٥٧٧ .
(١٩) الأعـلام ، ج ٦ ، ص ٢١٠ .
(٢٠) يوجد هـذا المخطوط ، على حـد رواية الجامعة / فرح انطون ، ص ٨ في مكتبة باريس وقد نقـل اليها من دير سان فيكتور فـي اسبانيا .
(٢١) الصلـة ، ج ٢ ، ص ٥٧٧ .

الوليد ابن رشـــد (الحفيد) سنة ٥٢٠ هـ. بقرطبة ونشـــا فيها ، في بيت علـــم وفضل، ممّا كان له أكبر الأثر في تكوينـــه الفكري والثقافي .

مجريـــات حياتـــه :

ولـــد ابن رشد بقرطبة سنة ٥٢٠ هـ. ، ونشأ فيهـــا حيث درس الفقه والطبّ وعلـــوم الأوائل ، وتتلمذ على مشاهير علمائهـــا ... وفي سنة ٥٤٨ هـ. نـــراه في مراكش ، حاضرة الدولـــة الموحّديّة التي بسطت سلطانها علـــى الأندلس والمغرب . وربما كان ابـــن طُفيل ، المفكّـــر المشهور ، وطبيب البـــلاط الموحّدي، هو الذي اشـــار عليه بالقدوم الى عدوة المغرب ؛ اذ قـــام ابن طُفيل بتقديم « ابن رشـــد » الشاب الى أبي يعقوب يوســـف سلطان الموحّدين ؛ وتروي لنـــا المصادر قصّة هذه المقابلة التي كـــان من نتائجها حثّ ابن رشـــد بوضع شروحٍ مُيَسَّرة لأرسطـــو ... (٢٢) .

وتعاقبت الأحداث في حياة ابن رشـــد ... ففي سنـــة ٥٦٥ هـ. تولّى القضاء باشبيلية ، وبعـــد ذلك بسنتين أصبح قاضي قرطبـــة . وبالرغم من مشاغله الكثيرة ، فقـــد ألّف أهمّ كتبه في هـــذه الفترة ..

وفي سنة ٥٧٨ هـ. استدعاه يعقـــوب المنصور، الذي خلف أبـــاه يوسف، لكي يصبح طبيبـــه بمراكش ، فقد تقدمت السن كثيرا بابن طفيل . ولـــم يلبث ابن رشد طويلا في البـــلاط الموحّدي ، اذ نـــراه بعد فترة قصيرة يعود الـــى قرطبة ، لكي يشغل فيها منصـــب قاضي القضاة .

كان ابن رشـــد ذا حظوة عند خليفة الموحّدين ، يعقـــوب المنصور، في بداية الامر، ثـــم مالبث أن نقم عليه ، بعـــد أن اتُّهم بالزندقة . فأمر الخليفة باحراق كتـــب الفلسفة ، ما عدا كتب الطـــبّ والحساب ، وفرض على ابن رشـــد أن يقيم في « اليسانة » وهي بلـــد قريب من قرطبة ، كانت أولا لليهود ، وأن لا يخـــرج عنها (٢٣) . وقد نقم السلطان ايضـــا

---

(٢٢) انظـــر : Encyclo . Vol. II , P. 410 - 413

(٢٣) انظـــر : ابن ابي اصيبعة ، ص ٥٣٢ .

على جماعة أخرى من الفضلاء الأعيان ، وأمر ان يكونوا في مواضع اخر ، واظهر انه فعل لهم ذلك بسبب ما يُدَّعَى فيهم انهم مشتغلون بالحكمة وعلوم الأوائل . وهم ابو جعفر الذهبي، والفقيه ابو عبد الله محمد بن ابراهيم، قاضي بجاية، وابو الربيع الكفيف ، وابو العباس الحافظ الشاعر القرابي (٢٤) .

وفي الحديث عن نهاية محنة ابن رشد ورفاقه يقول ابن أبي اصيبعة : « وبقوا مدة، ثم ان جماعة من الأعيان باشبيلية شهدوا لابن رشد انه على غير ما نسب اليه ، فرضي المنصور عنه وعن سائر الجماعة، وذلك في سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، وجعل ابا جعفر الذهبي مزوارا للطلبة ومزوارا للأطباء (٢٥) .

وقد اورد « رينان » قطعة من سيرة ابن رشد للأنصاري (وفق مخطوط المكتبة الامبراطورية ملحق عربي سنة ٦٨٢ ، ص ٧) جاء فيها عن محنة ابي الوليد :(٢٦)

« فكمدت سوق السعايات ، وضرب عن كل طالب ومطلوب ، والأعداء كانوا لا يسأمون من الانتظار ، ويرقبون أوقات الضرار ، فلما كان التلوّم من المنصور بمدينة قرطبة ، وامتدّ بها أمد الاقامة ، وانبسط الناس لمجالس المذاكرة ، تجددت للطالبين آفاقهم ، وقوي تالبهم واسترسالهم ، فأدلوا بتلك الالقيات، وأوضحوا ما ارتقبوا فيه من شنيع السوءات ، الماحية لأبي الوليد كثيرا من الحسنات . فقُرِئت بالمجلس، وتُدووِلَت اغراضها ومعانيها، وقواعدها ومبانيها، فخرجت بما دلّت عليه اسوا مخرج . وربما ذيّلها مكر الطالبين ، فلم يكن عند اجتماع الملأ الا المدافعة عن شريعة الاسلام ؛ ثم آثر الخليفة فضيلة الابقاء ، وأغمد السيف التماس جميل الجزاء ، وأمر طلبة مجلسه وفقهاء دولته بالحضور بجامع المسلمين ، وتعريف الملأ بأنه مَرَقَ من الدين ، وانه استوجب لعنة الضالين . واضيف اليه القاضي أبو

---

(٢٤) المصدر نفسه .
(٢٥) انظر : ابن ابي اصيبعة ، ص ٥٣٢ .
(٢٦) انظر : رينان ، ص ٤٣٨ — ٤٤٤ .

عبد اللـــه ابن ابراهيم الاصولي في هـــذا الازدحام ، ولُفَّ معه في حريق هذا الملام ، لاشياء ايضـــا نقمت عليه في مجالس المذاكرة ، وفي اثنـــاء كلامه مع توالي الأيـــام ... » ثم يستمر الانصاري في الحديـــث عن الاجتماع بالجامع الأعظم بقرطبـــة ، الى ان يقول : « فنالهم مـــا شاء اللـــه من الجفاء ، وتفرّقوا علـــى حكم من يعلم السرّ واخفى ؛ ثـــم امر ابو الوليد بسكنى اليسانة ، لقول من قال : انه ينسب في بني اسرائيل ، وانه لا يُعْرَف لـــه نسبة في قبائل الأندلس ... » ثـــم يتابع الحديث عـــن ابن رشد وصاحبه الذي لفـــه الحريق معه فيقـــول الانصاري « وليس في زمانهما مـــن بكمالهما ولا من نسج علـــى منوالهما ، وتفرق تلاميذ ابي الوليـــد ايدي سباء » (٢٧)

ومـــن الواضح انَّ هنالك اسبابـــاً خفيَّة قد دفعت الى نكبـــة ابن رشـــد : فالانصاري مثلا يواصل حديثـــه فيقول : « ويذكر ان من اسباب نكبته هـــذه اختصاصه بابي يحيى اخـــي المنصور والي قرطبة » . وقد أورد ابن ابـــي اصيبعة اسبابا اخرى . قـــال القاضي ابو مروان : « وممّا كان في قلـــب المنصور من ابن رشـــد انه كان متى حضر مجلس المنصور ، وتكلّم معـــه او بحث عنده في شيء مـــن العلم يخاطب المنصور بأن يقول : تسمع يـــا اخي . وايضا فان ابن رشـــد كان قد صَنَّف كتابا في الحيوان ، وذكـــر فيه انواع الحيوان ، ونعت كل واحد منهـــا . فلما ذكر الزرافة وصفها ثـــم قال : « وقد رايت الزرافة عنـــد ملك البربر »، يعنـــي المنصور . فلما بلـــغ ذلك المنصور صعب عليه ، وكان احـــد الاسباب الموجبة في انـــه نقم على ابن رشد وابعده ... (٢٨) .

وكانت هذه المحنـــة التي اصابت ابـــا الوليد ، مناسبة اغتنمها خصومه للتشنيع عليـــه (٢٩) .

وبعـــد عودة الخليفة المنصور الـــى مراكش ، ما لبث ان عفـــا عن ابن رشـــد ورفاقه واستدعاه اليهـــا . ولكنْ ما لبث ابن رشد ان

---

(٢٧) انظـــر : المصدر نفسه .

(٢٨) ابن ابـــي اصيبعة ، ص ٥٣٢ .

(٢٩) انظـــر : النباهي ، ص ١١١ ، ريتـــان ، ص ٢٣٧ ـــ ٢٤٤ .

توفي فيها ، بعد ذلك بقليل ؛ فكانت وفاته كما اوردها الانصاري ، ليلة الخميس التاسعة من صفر سنة خمس وتسعين وخمسمائة بموافقة عاشر دجنبر . ودفن بجبانة باب تاغزوت . وبعد ثلاثة اشهر حمل الى قرطبة ، فدفن بها في روضة سلفه بمقبرة ابن عباس (٣٠) .

شخصية ابن رشد واثرها في ادبه :

كان لشخصية ابن رشد اثرها العميق في ادبه، فقد طبعته بطابَع العمق والجدية ، ونأت به عن الفنون الأدبية التقليدية ؛ ولا عجب اذا راينا العقلانية والواقعية تطبعان ادبه وانتاجه الفكري في جميع فنون المعرفة ، ولذا كانت الدراية اغلب عليه من الرواية (٣١) .

عُني ابو الوليد ابن رشد بالعلم من صغره الى كبره ، وكانت لهذه الحياة الجادّة آثارها في تكوين شخصيته . فكان على حد تعبير بعض الروايات ، على شرفه ، اشدَّ الناس تواضعا واخفضهم جناحا (٣٢) . ويورد ابن ابي اصيبعة حديثا للقاضي ابي مروان الباجي يقول : « كان القاضي ابو الوليد ابن رشد حسن الراي ، ذكيًّا ، رثّ البزّة ، قويّ النفس ، .. » (٣٣) .

كان لهذه المقومات الشخصية اثرها البعيد في حياة ابن رشد ، وما تركته من طوابع مميّزة في ادبه . فكان الى جانب السيرة الحميدة ، قد وهب ذاته للعلم والمعرفة ، وقَصَرَ حياته على خدمة وطنه .

فهذا صاحب التكملة يتحدث عن هذه الجوانب في شخصية ابن رشد فيقول : « وولي قضاء قرطبة بعد ابي محمد بن مغيث فحمدت سيرته ، وتأثلت له عند الملوك وجاهة عظيمة ، لم يصرفها في ترفيع حال ، ولا جمع مال ، انما قصرها على مصالح اهل بلده خاصة ، ومنافع اهل الأندلس عامة (٣٤) . وكان الى ذلك كلّه ،

---

(٣٠) انظر : ريبان ، ص ٤٤٢ .
(٣١) انظر : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ .
(٣٢) المصدر نفسه .
(٣٣) ابن ابي اصيبعة ، ص ٥٣١ .
(٣٤) التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ .

سمحا كريم النفس،فكان يبذل العطاء لقُصّاده ، ويُلام أحيانا على البذل لمن لا يُحبّونه ولا يُكفّون عن اتّهامه فيقول : إنّ اعطاء العدوّ هو الفضيلة ، أما اعطاء الصديق ، فلا فضل فيه . وقد اعطى مرة رجلا اهانه ، وحذّره من فعل ذلك بغيره لأنه لا يأمن بوادر غضبه (٣٥) .

واذا كان ابن رشد متسامحا في امر نفسه ، فانه لم يكن متسامحا في امر غيره ؛ ومن ذلك قصّته مع الشاعر ابن خروف حين هجا أبا جعفر الحميري العالم المؤدب ، فقد اوجع الشاعر ضربا، وانذره ألاّ يعود لمثلها .

كانت شخصية ابن رشد مطبوعة على مزاج الفيلسوف الحكيم ، تنأى به عن الاتجاه الى تلك الفنون الادبية والفنية ، في الظرف والنغم والايقاع ، كما كان الشأن مع جلّة حكماء ذلك العصر واطبائه ، مثل ابن طفيل،وابن باجة،وابن زهر،وغيرهم . وهكذا كان ابن رشد يحسن المساجلة ولا يحسن المنادمة . ولا يبالي تزييف لغة « البلاط » في سبيل تحقيق لغة العلم،ورفع الكلفة من مجالس الباحثين فيه (٣٦) . وربما كانت هذه الصفات من الأسباب الخفيّة التي ادّت الى التنكيل بهذا المفكر الاسلامي العظيم .

لقد اجمع اكثر الدارسين لابن رشد على وصفه بانه « اكثر شُرّاح مؤلفات ارسطو عمقا » (٣٧) . كان ابن رشد معجبا الاعجاب كله بالمعلم الأول « ارسطو » .

ولكن يبقى السؤال الضخم أمام دارس أدب ابن رشد ، وهو : الى اي حدّ تأثر ابن رشد شخصيا بآراء ارسطو وفلسفته في الأخلاق والسياسة والخطابة والشعر ؟ وبعبارة اخرى فنحن نتساءل الى اي حدّ نستطيع ان نعتبر هذه الآراء تمثّل فلسفة ابن رشد واتجاهاته في فهم العلوم والآداب ؟

---

(٣٥) انظر : العقاد ، ص ١٩ .
(٣٦) انظر : العقاد ، ص ٢٦ .
(٣٧) انظر : بين الدين والفلسفة ، ص ٢٨ .

ومما لا شك فيه ان هنالك عاملين اساسيين أثّرا في مفهومه المتميّز للأدب ، وهذان العاملان هما شخصيّته الجادة ، وتكوينه الثقافي ، واشتغاله بعلوم الأوائل بانصرافه الى دراسة أرسطو والتعمّق بشرح فلسفته وآرائه .

وان نظرة شاملة في مؤلفات ابن رشد (٣٨) تظهر لنا الطابع العقلاني لأدب ابي الوليد : فمؤلفاته بصورة عامة يمكن تقسيمها الى اربعة اقسام : فهنالك شروح او مصنّفات فلسفية وعلمية ، وشروح او مصنفات طبية ؛ وكذلك هنالك مصنّفات كلامية وفقهية ، ومصنّفات ادبية ولغوية .

وكان مجال التأليف عند ابن رشد قد تأثر بطبيعة نظرته الفلسفية ؛ فقد حرص دائما على تأكيد ذلك المذهب الفلسفي الذي تميّزت به الفلسفة العربية في الأندلس خاصة ، والفكر العربي بصورة عامة ؛ ونحواه تقسيم الأقيسة الى ثلاثة اصناف : برهانية وجدلية وخطابية . وبناء على ذلك يقسم الناس الى فئات او طبقات ثلاث متقابلة : هم اهل البرهان ، فالجدليون ، فالخطابيون . وهو يعني باهل البرهان الفلاسفة او الخاصة ، وبالخطابيين جمهور الناس الغالب او العامة ، وبالجدليين طائفة من الناس هي دون الفلاسفة مرتبة ، الا انها مع ذلك تتميّز عن الجمهور ، هم المتكلمون (٣٩) .

وربما يَسْهُل على دارس مؤلفات ابن رشد ، بعد هذا ، أن يصنّفها وفق هذه الأقيسة . فنحن نعتقد مثلا أن كتابة « تهافت التهافت »

---

(٣٨) في مؤلفات ابن رشد انظر : ابن ابي اصيبعة ، ص ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، التكملة ج ٢ ، ص ٥٤٤ ــ ص ٥٥٥ ؛ الذهبي ، ص ، رينان ، ص ٧٩ ــ ٩٣ وهما من اكثر القوائم ضبطا وتفصيلا ؛ وهناك نشرة الأب « بونج » من مخطوطات ابن رشد الموجودة في انحاء العالم . وقد اشارت المصادر ايضا الى تلك القائمة المهمة التي تحوي مؤلفات ابن رشد في المخطوطة رقم (٨٨) بمكتبة الأسكوريال باسبانيا .

(٣٩) انظر : نخبري ، ص ٣٣ .

هو مساجلة ادبيـــة قام بائنائها بفحص دقيق،وتأويل عميق متبصّر لكتـــاب « تهافت الفلاسفة » للغزالي . فهـــو ينعي بحرارة على الغـــزالي حين يصرّح بانه لـــم يقصد من تهافته بيان الحقّ في نفســـه ، وانما قصد التشويش على الفلاسفـــة ، ونزع الثقة بهـــم ... (٤٠) . وكذلك تستطيع أن تدرج في إطـــار الادب ، وفق مفهوم ابن رشـــد ، كتابه الذي سمّاه « فصل المقـــال فيما بين الحكمة والشريعة مـــن الاتصال »، وكتاب "منهاج الادلة في علـــم الاصول"... وغيرها ، دون أن نضـــع حـــدًّا فاصلا بين علم الكلام واثره فـــي الادب .

امـــا في مجال اللغة ، فقد اشارت المصادر الـــى « كتابه في العربية الذي وسمـــه بالضروري » (٤١) . وكذلك كتابـــه في الكلام على الكلمة والاسم المشتق (٤٢) . وهكـــذا نستطيع القول إن مجالـــه الأدبي قد اتّسم بتلك المعركـــة الفكرية التي تركت اثـــرا عميقا في التفكير الاسلامي ؛ هذا مع العلـــم ان الفلسفة الادبية لم تشغل ســـوى حيّز صغير فـــي مذهب هـــذا الفيلسوف ، بازاء فلسفته المـــادية . فقد كان الخلاف ، بينه وبين المتكلمين في الفلسفة الأدبيـــة،شبيها بالخلاف بينه وبينهـــم في فلسفتـــه الطبيعية (٤٣) .

لقـــد كانت شخصية ابن رشـــد واضحة متميزة في ادبـــه،وفي اجتهاده الفكـــري،وفي فلسفته . وإنّ تصانيفـــه التي وسمها بالشروح ، كانت على مستويات مختلفـــة من حيث المنهج والغاية التـــي يرمي اليها . وهو في ذلك كلّـــه كان يميز احيانا ، حتى في هـــذه الشروح ، بين رايـــه وراي المتن الذي يشرحـــه .

وهكذا فان شخصية هـــذا القاضي الفيلسوف ، التـــي طُبعت على الجِـــدّ ، قد تركت آثارها العميقة فـــي مفهومه للأدب . فقد كان

---

(٤٠) انظر : بين الديـــن والفلسفة ، ص ١٩٧ .
(٤١) التكملـــة ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ .
(٤٢) انظر : رينـــان ، ص ٩٠ .
(٤٣) انظر : فـــرح ، ص ٥٨ .

يتعفّف عن حضور مجالس اللهو والطرب ، مما استباحه جملة من علماء عصره وحكمائه . وقد بلغ من تعفّفه عمّا لا يراه خليقا بعلمه ومكانه من القضاء انه ، « احرق شعره الذي نظمه في الغزل أيام شبابه » . وبذلك ، مع الأسف ، حُرِم الدارسون من مصدر مهم من مصادر دراسة أدبه وحياته .

وفي هذا الاطار العقلاني لمفهوم الأدب ، وتغليبه هذا الجانب على الجانب الفني ، نورد الرواية التالية :

قال ابو الفضل التفاشي : جرت مناظرة بين يدي ملك المغرب المنصور يعقوب بين الفقيه ابي الوليد ابن رشد والرئيس ابي بكر ابن زهر ، فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة : ما ادري ما تقول ، غير انه اذا مات عالِمٌ باشبيلية ، فأُريدَ بَيْعُ كتبه، حُمِلَت الى قرطبة حتى تُباع فيها ، وإن مات مطرب بقرطبة فأُريدَ بَيْعُ آلاته، حُمِلَت الى اشبيلية (٤٤) .

ارتباط الأدب عند ابن رشد بالحقيقة والمعرفة :

نظر ابن رشد الى الأدب نظرة شاملة وعميقة ، وقد فهم رسالته الأدبية من خلال اتجاهين أساسيين استغرقا حياته الأدبية كلّها . وهذان الاتجاهان يتميزان بالبحث عن الحقيقة وواجب الوجود، من ناحية ، وعن المعرفة التي هي عبادة للخالق ؛ ويلتقي ابن رشد في ذلك مع الفارابي وغيره من المفكرين الاسلاميين الذين يعتبرون البحث عن المعرفة عبادةً لله، سبحانه وتعالى، وتسبيحا له في ملكوته . ولنستمع الى ابن رشد في هذه العبارة التي حُذِفَت، على حد تعبير « رينان »، من شرح ما بعد الطبيعة في الطبعات اللاتينية ، وقد ترجمها مسيو « منك » من العبرية .

قال ، قال ابن رشد : « يقوم دين الفيلسوف الخاص على دراسة ما هو كائن ؛ وذلك لأن ارفع عبادة يمكن أن يعبد الله بها ، تقوم

---

(٤٤) النخ ، ج ١ ، ص ١٤٧ .

على معرفة ما صنع ، لما يؤدي اليه هذا من معرفتنا اياه على حقيقته كلها . وهذا هو أصلح الأعمال عند الله ... » (٤٥) .

اتجه ابن رشد الى البحث عن الحقيقة ، تاركا لنا في ذلك نتاجا خصبا وأدبا رفيعا يقع على حد تعبير بعض الروايات في حوالي عشرة آلاف ورقة .

وهو في بحثه عن الحقيقة ، كان له موقف متميّز عن المسائل الكبرى التي أثارت الجدل في عصره وفيما تلاه من القرون الوسطى . فقد ثار الجدل حول مسألة قِدَم العالم ، ومسألة علم الله بالجزئيات ، ومسألة النفس وبقائها ؛ هذا فضلا عن مسألتين أخريين ، ثار حولهما الجدل واحتدم، وهما : مسألة الصفات الالهية، ومسألة الحقيقتين . والمسألة الاخيرة مؤداها أن حقيقة الشرع وحقيقة العلم والحكمة شيء واحد، يختلف في العبارة ولا يختلف في الجوهر . وقد شَغَلَت هذه القضية اقلام الكتّاب والمفكرين في ذلك العصر . فوضع ابن طفيل قصّته المعروفة « حي بن يقظان »، ووضع ابن رشد كتابه الموسوم « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » . فالفكرة التي أملت على ابن طفيل قصته ، هي ذاتها التي أملت على ابن رشد كتابه . وان الفرق بين الأسلوبين يعود الى الفرق بين شخصيّتَي الكاتبين .

فابن طفيل ، كما يبدو من أخباره وآثاره ، صاحب مزاج طريف ، يُحسن فنَّ المنادمة والمسامرة ، في حين أن شخصية ابن رشد الجادة ، ونظرته العقلانية الى الأشياء ، قد تردد اصداؤها في أدبه ، مما حدا بمن ترجموا له بوصفه بأن الدراية كانت اغلب عليه من الرواية (٤٦) . وكان وصفه هذا في مجال الفقه ، ولكنه ينسحب بطبيعة الحال على حياته الثقافية والفكرية كلها . فقد تميز ابن رشد منذ وقت مبكر في

---

(٤٥) رينان ، ص ١٧٦ .

(٤٦) التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ .

مجال الفقه ، بالنظرة العقلية والقياس في الأحكام . هذا مع العلم أن محصوله في الرواية كان واسعا . وان المصادر تُحدّثنا مثلا بأنه كان يحفظ الموطّأ عن ظهر قلب (٤٧) .

وان نزعة التوفيق بين الشريعة والفلسفة تُعتَبَر معقد الأصالة والطرافة في تفكيره . أما في مجال المعرفة ، فلم يَتوانَ ابن رشد في البحث والتنقيب عن جميع المعارف الانسانية دراسة وتدقيقا وشرحا ، وفي مختلف الحقول ، في الطب والمنطق والفلك والرياضيات والفلسفة وغيرها من صنوف المعارف الانسانية

فالبحث وراء المعرفة ، في نظر ابن رشد يُقرّبُه الى فهم حقيقة الخالق ؛ فهو عبادة وتسبيح للّه في ملكوته وبالتالي فان هذا المسرى يؤدي به الى فهم جوهر الدين وحقيقته حيث يُتَمّم « الوحي » ما عجز عنه العقل . وهكذا فان الأدب ونتاج الفكر الانساني يرتبط في نظر ابن رشد بالحقيقة والمعرفة من حيث الغاية والهدف .

الخطابة عند ابن رشد :

وفي هذا الموضوع لا بُدَّ لنا أن نقف عند كتاب « تلخيص الخطابة » ، حيث يبدأ ابن رشد الكلام فيه في كل فقرة بقوله : « قال » ثم يورد بضع كلمات من أوائل الفقرة، ويمضي بعد ذلك في الشرح ، دون أن يتميز ما لأرسطو مما له هو ذاته ، ويستطرد أحيانا ويأتي بكثير من الأمثلة من عنده، ولكنه في هذا كلّه يتابع ترتيب النص الاصلي لأرسطو ويتقيّد به . ويتوسع أحيانا ، فيزيد كثيرا عن حجم نص أرسطو (٤٨) . وقد فرغ ابن رشد من كتابه هذا يوم الجمعة الثالث من شعبان من عام سبعين وخمسمائة ، بقرطبة (٤٩) .

وقد تَوَسَّع ابن رشد في ايضاح معاني أرسطو التي يذكرها النص ؛ وهو يعترف في نهاية الكتاب أن ما سَجَّله لم يتعدَّ فهمه

---

(٤٧) انظر : ريتان ، ص ٦٣ .
(٤٨) انظر : تلخيص الخطابة ، ص ر .
(٤٩) تلخيص الخطابة ، ص ٣٣٢ .

واستيعابه لهذه النصوص ، اذ يقـول : « وقد لخصنا منها مـا تأدى الينا فهمه،وغلب على ظننا انـــه مقصوده ؛ وعسى اللـه ان يَمنَّ بالتفرغ التام ، للفحص عـن نص اقاويله في هذه الأشيـاء (٥٠) .

وان هذا الاتجاه يحملنا على الاعتقاد بطابع ابن رشـد وشخصيته في هذه الشروح ، ولا سيمـا في « تلخيص الخطابة »؛فتراه مثـلا يستبدل في كتابه هـذا بالأمثلة اليونانية نظائرها في اللغـة العربية ، متلائما مع البيئة العربية الاسـلامية التي يكتب لها ويعيش فيهـا ؛ فيورد شواهد من الفقـه والتاريخ الاسلامي واللغة العربية . وقد نجـح ابن رشد نجاحا كبيرا فـي تطبيق القواعد والنماذج التي يذكرها أرسطو ، على اللغة العربية وتراثهـا ، ولا سيما في المقالة الثالثة : اقسام فـن الخطابة ، في صفات الأسلوب ... الـخ (٥١) .

فان ابن رشـد يتبنَّى مذهب « المعلم الأول » أرسطـو في الخطابة، كما يتبناه في الشعـر ، كما سنرى فيما بعد.« فصناعة الخطابـة » تناسب صناعة الجـدل ، وذلك ان كلتيهما تَؤُمَّان غاية واحـدة وهي مخاطبة الغير ... ويوجـد استعمالهما مشتركا للجميع ؛ اعنـي أن كـلّ واحد من الناس يستعمـل، بالطبع، الأقاويل الجدليـة والأقاويل الخطابية ... (٥٢) . وفي موضع آخـر يقول : « وكلّ واحد مـن الناس يوجد مستعملا لنحو مـا من انحاء البلاغة ، ومنتهيا منها الـى مقدار ما ، وذلك في صنفـي الأقاويل اللذين احدهما المناظـرة،والثاني التعليم والارشـاد . واكثر ذلـك في الموضوعات الخاصة بهـذه الصناعة،وهي مثل الشكاية والاعتذار وسائر الأقاويل التي في الأمور الجزئية ... (٥٣) .

فالكلام عنده علـى مذهب أرسطو ، مركَّب مـن ثلاثة : من قائل ، وهو الخطيب؛ومـن مقول فيه ، وهو الذي يعمل فيـه القول ؛ ومن

---

(٥٠) تلخيص الخطابة ، ص ٣٣٢ .
(٥١) أنظر : تلخيص الخطابة ، ص ٢٤٨ ــ ٣٣٢ .
(٥٢) تلخيص الخطابة ، ص ٣ .
(٥٣) تلخيص الخطابة ، ص ٤ .

الذين يوجه اليهم القول ، وهم السامعون . والغاية بالقول انما هي متوجهة نحو هؤلاء السامعين . والسامعون لا محالة إمّا مُناظِر ، وإمّا حاكم ، وإمّا المقصود اقناعه ... والحاكم في الأمور المستقبلة ، هو الرئيس ، والحاكم في الأمور الكائنة هو الذي ينصبه الرئيس، مثل القاضي في مدننا هذه وهي مدن الاسلام . واما الناظر فانما يناظر بقوة الملكة الخطابية (٥٤) .

ولنستمع لابن رشد كيف يطبّق نظريات ارسطو في تفصيل الأقاويل الخطابية على نصوص من اللغة العربية ، بل يستشهد على ذلك بآيات من القرآن الكريم . قال : والمكرور والمعاطف في الأقاويل الخطابية ، هو أن يكون اول القول وآخره بلفظ واحد، او قريب من الواحد .وهذا مثل قولهم : « القتل انفى للقتل » ، ومثل قوله تعالى (الحاقة ما الحاقة ، وما ادراك ما الحاقة) .. (٥٥) .

وهنالك امثلة كثيرة ؛ بل ان المقالة الثالثة كما اشرنا سابقا ، هي محاولة جادّة من ابن رشد ، لكي يتمثّل نظريات ارسطو في الخطابة ويطبقها على اللغة العربية وآدابها . ولنستمع اليه يقول :

« واما الأسماء المترادفة ، فصالحة جدًّا لصناعة الشعر ، وقد تصح ايضا لصناعة الخطابة . والشاعر يستعمل هذا الصنف لأسباب أخصّها به استعمالها لتصحيح الوزن والقافية ، مثل قوله :

« وهِنْدٌ اتى مِن دونها النأيُ والبُعْدُ » (٥٦) .

فابن رشد يشير بهذا النص الى بيت للحطيئة من داليّته المشهورة التي يمدح بها بغيض بن عامر ، ومطلعها :

« الا طَرَقَتْنا بَعدما هجموا هِندُ ــ وقد سِرْنَ خَمساً وآتلأبَّ بنا نَجدُ » .

وتمام البيت الذي استشهد به ابن رشد هو :

---

(٥٤) تلخيص الخطابة ، ص ٢٨ ــ ٢٩ .
(٥٥) تلخيص الخطابة ، ص ٢٨٨ .
(٥٦) تلخيص الخطابة ، ص ٢٦٣ .

ألا حَبّذا هِندٌ وأرضٌ بها هِندُ : وهِندٌ أتي مِن دونها النأى والبعد

وفي حديثه عـن توابع الالفاظ يقـول :

« وينبغي أن تعلـم أن الأخذ بالوجوه (٥٧) ليس لـه غناء في الخُطَب المكتوبة، وانمـا غناؤه في المَثْلُوَّة ؛ وان عادة العـرب في استعمالها قليلة . وأما من سلف من الأمـم ، فربما اقاموها في الأشعار مقـام الالفاظ ، أعني التشكيلات ، ويحذفون اللفـظ الدالّ على ذلك المعنى امـا ارادة للاختصار ، وإما طلبـاً للوزن والالذاذ ؛ وهذا لم تجر بـه عادة العرب . ولهذا صار ما يقول ارسطـو في كثير من هذه الأشياء ، كمـا يقول ابو نصر ، غير مفهوم عندنـا ولا نافع . والأخـذ بالوجوه انما هو نافع اكثر في الخطب التـي تتلى على جهة المنازعة ، لأنـه انما يحتاج الـى الاستعانة بجميع الأشياء المقنعـة في موضع المنازعة لتحصـل الغلبة .

وأمثال هـذه الخطب هي الخطب التي كانت بين علـي ومعاوية . وأمثال ذلك في الأشعار ، كالأشعار التي كانت بـين جرير والفرزدق (٥٨) .

وهكذا نجد أضاف ابن رشد اضافات أصيلـة في الشروح التي وضعهـا على مصنَّفات أرسطـو . ولم يَكتفِ بالنقل ، بل ترك آثـار عبقريته الفذّة على تلـك النظريات والآراء ، التي قامـت بدور مهمّ في النهضة الأدبيـة فيما بعـد .

ابـن رشـد والشعـر :

لـم يكن أبو الوليد ابن رشـدا شاعرا ولا ذا طبيعة شعريـة ؛ فان اتجاهه الفكـري ، وما جُبِل عليه من جدّية في التفكـير والسلوك ، كانا ينأيان بـه عن حياة الفـن والشعر .

ولـم يكن ابن رشد في عالـم الشعر، مع ذلك كله ، بأقل من أولئـك النجباء ، الألبّـاء من نظرائه من كبار الفلاسفة ، والأطبـاء والفقهاء ،

---

(٥٧) وقـد عرَّف « الأخذ بالوجوه » بقولـه : « الأمور المستعملة مـع الالفاظ على جهة المعونة في جـودة التفسيم وابتاع التصديق وبلوغ الغرض المقصود » . انظر : تلخيص الخطابـة ، ص ٢٥٠ .

(٥٨) تلخيص الخطابـة ، ص ٢٥١ ــ ٢٥٢ .

كابن سيناء وابـــن حزم وغيرهما ، في المشرق ، كما هـــو في المغرب والأندلس ؛ وقد كان الشعر في الأندلس،على حـــد تعبير بعض الروايات ، سائرا على جميع الألسنـــة في الأندلس ؛ فالشعر يجري علـــى ألسنة الرجال كما يجري على ألسنـــة النساء ، ويجري على ألسنـــة الشعراء كما يجري على ألسنـــة الفقهاء والعلماء . ولكنَّ شعـــر هؤلاء العلماء لم يكن ليتجاوز النظـــم والتأليف المحكم بين المقاطع والألفاظ . ونحـــن اذا استثنينا بعض الأمثلـــة القليلة ، فاننا نستطيع القـــول : إن جميع هؤلاء العلماء قـــد نظموا الشعر وانتحلوه ، دون أن يكونـــوا ذوي شأن في مجال الغنائية او الفـــن ، ولكنه حلية يتَّصف بها كـــل نجيب . وكان ابن رشـــد من كبار هؤلاء النجباء الألبّاء ، فلا بـــدّ من أن يضيف الشعر الى جملة علومـــه وكفاياته .

فهذا ابـــن الأبار يصفه فيقـــول :

« وكان يُفزَع الـــى فتواه في الطب كما يُفزَع الـــى فتواه في الفقه ، مع الحظّ الوافر مـــن الأعراب والآداب . حَكَى عنـــه ابو القاسم بـــن الطيلسان انـــه كان يحفظ شعر حبيب والمتنبـــي ، ويُكثر التمثّل بهما في مجلسه ، ويورد ذلك احســـن ايراد » (٥٩) .

ويحدّثنا ابـــن سعيد ، صاحب المغرب ، وقد كـــان قريب عهد من الفترة التي عاش فيها ابـــن رشد ، فيقول : « ادركه والدي وقـــرأ عليه ، وقال في وصفـــه الشقندي : « فقيـــه الأندلس ، وفيلسوفها الـــذي لا يَحتاج في نباهته الى تنبيـــه » . وانشد من شعره قولـــه :

مـــا العِشـــقُ شأني ، ولكـــنْ لستُ أُنكِرُهُ
كـــم حَـــلَّ عقـــدة سلوانـــي تَذَكُّـــرُهُ

مـــن لـــي بِغَضِّ جفوني عـــن مخبِّرة الـــ
أجفـــان قـــد اظهَرَتْ مـــا لســـتُ أُضْمِرُهُ

---

(٥٩) التكملـــة ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ .

لــولا النُّهــى لأطعْتُ اللَّحْـظ ثانيــةً
فيمــن يَـرُدُّ سنــا الالحــاظ مُنْظَـرُهُ

مـــا لابْــنِ ستّــينَ قادَتْــه لِغايَتِــهِ
عشريــةٌ فنــأى عنــه تَبَصُّــرُهُ

قــد كــان رضوى وقــاراً فهــو سافيــةٌ
الحُسْنُ يــورِدُه ، والهون يُصــدِرُهُ (٦٠) .

وفي هــذا الموضوع ، يتحدث الفيلســوف الفرنسي المشهور ، ارنست رينــان، فيقول :

« ونعلم من ليــون الافريقي أن ابن رشــد كان قد نظم عدة قصائد خلقية وغزلية ، فأحرقهــا في مشيبه ؛ وينقل ليون الينا قطعة منهــا تجعلنا نفترض بالحقيقــة ، كون الحكمة ، من بعض النواحي ، لــم تأت ابن رشد الاّ مــع السنين .. (٦١) . ومهما يكن من أمــر ، فقد راض ابن رشد نفسه علــى التوقّر فبالغ في رياضتهــا ، وربّما دفعه ذلك الى حرق اشعــارٍ نظمها في صباه ؛ وبذلك، مع الاســف، فَقَدْنا لونًا مهمًّا من نتاج عبقريته ، يمكــن ان يُلقي ضوءا على حياته الخاصــة ونتاجه الادبــي .

لــم يكن ابن رشد ممن نَظَــم الشعر وانتحله ، على مذهب نظرائه من العلماء والفلاسفة، ولكنه كان لــه موقف من الشعر ، بصورة عامــة ، يتداخل مع موقف أرسطــو ونظريته في الشعر . والواقــع ان تلخيصه « فــن الشعر » لأرسطو يشهد بعلوّ كعبه في الادب العربــي ، ولا سيما شعر مــا قبل الاسلام .

وتجــد في كل صفحة من هذا الكتاب ، على حــد تعبير المستشرق الفرنسي ارنست رينــان ، استشهادا بعنترة وامرىء القيس والاعشــى والنابغة وابي تمــام والمتنبي وكتاب الاغانــي ... (٦٢) .

---

(٦٠) المغــرب ، ج ١ ، ص ١٠٤ ــ ١٠٥ .
(٦١) رينــان ، ص ٦٢ ــ ٦٣ .
(٦٢) انظر : رينــان ، ص ٦٣ .

ويربط ابن رشد بين الموسيقى والشعر ، كما هو الأمر عند أرسطو ؛ فالموسيقى بنظره تُعْنَى بتثقيف النفس وتمريسها على الفضائل الخلقية . وهو يعني بالموسيقى الأقاويل المحلية ذات اللحن ، على حد تعبيره ، فكانت بهذا الفن خادمة لصناعة الشعر الذي يؤثر في الصِبْيَة والأحداث أكثر من الخطابة والبرهان ـ وهما ضربان من ضروب الاقناع ـ . فاذا رقوا عن هذا الطور استُعمِلَت معهم الأقاويل الخطابية والجدلية ، وفي الطور الأخير البرهانية التي يراد بها الفلاسفة أو الحكماء خاصة (٦٣) .

فابن رشد ينظر الى الشعر ، وفق نظرة أرسطو ، وذلك من خلال وظيفته في التربية وتأثيره في الناشئة ؛ ومن ناحية أخرى فانه يرى فيه صنفا من صنوف الاقناع ؛ والاقناع أحد سبيلين رئيسيين لغرس الفضائل في نفوس سكان الدولة . فالأقاويل الخطابية والشعرية يخاطَبُ بها الجمهور ، وقد اعتمدها أيضا أفلاطون في « الجمهورية » (٦٤) .

فابن رشد يقف من الشعر من خلال وظيفته التربوية موقفا هادفا ؛ فمن القصص التي ، كما يقول ، ينبغي نبذها ما كان حاثًّا على طلب اللذة أو على ابتغاء المال ، لأنها تحول دون التمرُّس بحياة الجندية . وهذه المفاسد ، كما يقول ابن رشد ، يكثر ذكرها في أشعار العرب ، « فلم يكن أضر من تلقينها للصبية منذ نعومة أظفارهم » ؛ وهو ما درج عليه معلموهم منذ القدم (٦٥) .

لا شك أن أبا الوليد ، يقف موقفا انتقائيا من الشعر العربي في مجال التربية . وهذا أمر ينسجم والأهداف التربوية السامية ، التي رسمها منذ البداية ، من وجوب غرس الفضائل في نفوس أبناء المدينة الفاضلة . ولا يمكن أن يكون هذا الموقف حُرْها للشعر العربي

---

(٦٣) أنظر : فخري ، ص ١٢٣ .
(٦٤) أنظر : فخري ، ص ١٢٣ .
(٦٥) أنظر : فخري ، ص ١٢٦ .

بصورة عامة ، وهو الذي كان يحفظ شعر حبيب والمتنبي ، ويُكثر التمثل بهما في مجلسه .

كان لابن رشد باع في قول الشعر ، ولكنّه لم يكن يمثل جوانب عبقريته المشرقة ؛ وكانت له آراء ونظرات فنية ونقدية فيه امتزجت بآراء أرسطو ونظرته للشعر امتزاجا كلّيّا . ونحن نعتقد أن ابن رشد قد حالفه التوفيق في مجال الشعر كما حالفه في مجال الخطابة ، من حيث محاولته لتطبيق نظريات أرسطو على نماذج أصيلة في اللغة العربية وآدابها ، شعرا ونثرا ...

أدب ابن رشد ونزعته الانسانية والاجتماعية :

لقد ذاع صيت ابن رشد بين « اللاتين » لأمرين ؛ لكونه طبيبا وكونه شارحا لأرسطو ؛ بيد ان فخره شارحا اعظم من فخره طبيبا بمراحل . فمهما يكن من شهرة نالتها « الكليات » لم تبلغ ما ناله « قانون » ابن سيناء من اعتبار بالغ (٦٦) . وانما انتهى بشرحه الأكبر الى تكوين قطب ثبت في الفلسفة ، « فالطبيعة تفسر بأرسطو، وأرسطو يفسر بابن رشد » (٦٧) .

وألّفَ ابن رشد، عدا هذه الشروح ، عددا كبيرا من الكتب يُعْسُر احصاؤها تماما . وقد شَمَلت مؤلفاته مختلف مجالات المعرفة الانسانية : في الفلسفة ، وعلم الكلام ، والفقه ، والفلك ، والطب ، والنحو ، واللغة .

ونحن اذا تجاوزنا مفهوم الأدب من حيث هو نتاج فكري هدفه التسلية والموعظة الى مفهوم أعمّ ، وذلك من حيث هو نتاج فكري يؤثر الكاتب من خلاله في القارىء ويحركه نحو الأفضل ، نكون قد اقتربنا كثيرا لكي نصنّف في هذا الاطار مجموعة من مؤلفات ابن رشد الأدبية ، وأهمّها :

---

(٦٦) انظر : رينان ، ص ٧٣ .
(٦٧) المصدر ذاته .

١ ــ كتاب « تهافت التهافت » ، وقد وضعه ابن رشد لكي يدحض به كتاب الغزالي الذي عنوانه « تهافت الفلاسفة » .

٢ ــ كتاب « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » ، وقد حاول فيه ابن رشد أن يوفّق بين الشريعة والفلسفة .

٣ ــ كتاب « الكشف عن مناهج الأدلّة » .

ولكي نستطيع أن نفهم اتجاهات ابن رشد في مصنّفاته المختلفة ، لا بُدَّ لنا أن نتعرف على نظرة ابن رشد للكاتب ، من ناحية ، ولنوعية الجمهور الذي يكتب اليه من ناحية اخرى . فالناس في نظره مختلفون حسب استعداداتهم وقدراتهم ، ومن هذا التفاوت في الفِطَر والعقول ، جعل الناس على حد تعبيره طوائف ثلاثا :

١ ــ الخطابيّون ، وهم الجمهور الغالب الذي يصدق بالأدلة الخطابية .

٢ ــ اهل الجدل ، ومنهم رجال علم الكلام ؛ وهم الذين ارتفعوا من العامة ولكنّهم لم يصلوا لاهل البرهان اليقيني .

٣ ــ البرهانيون ، بطبعهم وبالحكمة التي أخذوا أنفسهم بها .

وبناء على ذلك يقول ابن رشد بانقسام الشريعة الى ظاهر له اهله ، وهم العامة واشباههم ، وباطن له أهله ، وهم ذوو البرهان (٦٨).

وان نظرية ابن رشد في التعلُّم تقوم على هذه الفروق الفردية ، اذ كان ينادي دائما « بأنَّ جَعْلَ الناس شرعا واحدا في التعلُّم خلاف المحسوس والمعقول » ؛ هذه النظرية التي كانت معروفة جيدا عند الكثير من الفلاسفة قبله ، مثل الفارابي وابن سينا وغيرهما ...

كان ابن رشد يرى وجوب تقيد الكاتب بنوعية الجمهور الذي يكتب اليه . فقد حرم مثلا الحديث مع الجمهور في علم الله على النحو

---

(٦٨) انظر : بين الدين والفلسفة ، ص ٩٣ .

الفلسفي . وقد اخذ على الغزالي اثباته التأويل في غير كتب البرهان ، وتقديمه ذلك الى جمهور الناس . وشجب المتكلّمين ، وبخاصة المعتزلة ، انهم بتأويلهم التي صَرَّحوا بها للجمهور ، اوقعوا الناس في شتات وتباغض وحروب ، ومزقوا الشرع (٦٩) .

ولكننا نجد ابن رشد يقع في مثل هذا الطبع ، فيعتذر ، بأن الجمهور قد عرف من اولئك الذين يلومهم هذه التأويل . فكان لا بدَّ له أن يتكلم فيها ، وذلك لبيان الحق من جهة ، ولدفع الأذى عن الجمهور من جهة اخرى .

وان هذا اللون من الكتابة التي خرج بها من اطار كتب الخاصة ، اهل البرهان ، الى نطاق العامة ، اهل الجدل والخطابة ، ليست في جوهرها سوى مساجلات ومناظرات كتابية ، يحاول الكاتب دحض آراء خصومه ، واصلاح ما افسدته ، على حد تعبيره ، لدى الجمهور . بل ينصّ احيانا ان بعض الأفكار ، لا سبيل الى انشائها في هذا الكتاب ، مما يؤكد أن كتاب « تهافت التهافت » ، ليس من الكتب التي تُدَّخَر للخاصة،وانما هو كتاب للعامة،على حَدِّ مفهومه ؛ اذ يقول احيانا في مناقشة بعض الموضوعات : ، « وهذا العلم لا سبيل الى انشائه في هذا الموضع » (٧٠) .

وان اسلوب ابن رشد في « تهافت التهافت » ، يبتعد كثيرا عن الأساليب البرهانية ، فقد خرج به من هذه الدائرة من حيث الهدف ، ولكنه يتلوَّن احيانا بانفعالية تُخرج الكاتب عن وقاره وموضوعيته الى السباب والتهكم اللاذع .

فيشير الى ابي حامد الغزالي فيقول : « فاتيانه بمثل هذه الأقاويل السفسطائية قبيح ، فانه يُظَنُّ به انه ممن لا يذهب عليه ذلك ، وانما أراد بذلك مداهنة اهل زمانه » (٧١) وهذه تهمة ، ولا شكَّ ، خطيرة يوجّها ابن رشد الى ابي حامد . وفي موضع آخر يقول :

---

(٦٩) انظر : بين الدين والفلسفة ، ص ١٠١ .
(٧٠) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٩٢ .
(٧١) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٩٣ .

« قلت : هذا الكلام ،الذي هو جواب عن الفلاسفة ، في نهاية السقوط » (٧٢) . وفي مكان آخر « قلت : هذا كله سفسطائي خبيث » (٧٣) . وكذلك : « هذا بَيِّن بنفسه » وقائل هذا ، هو الملبس ، لا الفلاسفة ، فان الملبس هو الذي يقصد التغليط لا الحق . واذا اخطأ في الحق فليس يقال فيه : انه ملبس » (٧٤) . وفي تعليق له حول بعض الأفكار يقول : « وهذا كله عند الفلاسفة هوس وتخليط » (٧٥) . وكثيرا ما يَتَّهم ابنُ رشد ابنَ سينا وشيعته فيقول : « فانظر هذا الغلط ، ما أكثره على الحكماء ؟ فعليك أن تتبين قولهم هذا : هل هو برهان أم لا ؟ أعني في كتب القدماء ، لا في كتب ابن سينا وغيره ، الذين غيَّروا مذهب القوم في العلم الالهي ، حتى صار ظنيا » (٧٦) .

ويتهم أحيانا ابن سيناء،والفارابي أحيانا ، بعدم فهم مذاهب قدماء الفلاسفة ، فيقول : « قلت : هذا كله تَخَرُّص على الفلاسفة من ابن سيناء وأبي نصر ، وغيره ... (٧٧) . وقد يهاجم الغزالي بعنف ، مع دحضه لآراء ابن سينا اذ يقول : « وأما الكلام فيما صدر عنها (أي العقول) فانفرد ابن سينا بالقول الذي حكاه (أي الغزالي) من الفلاسفة وتَجَرَّد هو للرد عليهم ، ليوهم انه ردّ على جميعهم .

وهذا ، كما قال ،"تَعَمُّق ممَّن قاله في الهوس » (٧٨) . وهو أيضا ينعي على الفارابي وابن سينا مقالهما ، اذ يصيح مندهشا : « والعجب كلّ العجب ، كيف خفي هذا على أبي نصر وابن سينا ، لأنهما أول من قال هذه الخرافات،فقلَّدهما الناس ، ونسبوا هذا القول الى الفلاسفة ... » (٧٩) .

---

(٧٢) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ١٦٠ .
(٧٣) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٢٤٢ .
(٧٤) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٢٥٢ .
(٧٥) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٢٨٢ .
(٧٦) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٣٠١ .
(٧٧) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٣٠٦ .
(٧٨) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٣٨٥ .
(٧٩) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٣٩٧ .

وان مثل هـذه الاشارات التي تنم عن أسلوب انفعالـي كثيرة جـدا . وهو في أسلوبه هذا قد يَعْنُف الى حـدّ السباب،ويهزأ الى حـد السخرية اللاذعة . ففي مناقشته لبعض آراء ابـي حامد يقول : « فهو صادق في ذلـك ، اذ لم يبلغ الرجـل المرتبة من العلـم المحيطة بهذه المسألة . وهذا هـو الظاهر من حاله فيما بعد .. » (٨٠) .

وقد وقع ابـو حامد الغزالي في تيّار السباب والعنف أيضـا ؛ ولنستمع الى الغزالي وقد جاوز حـدّ الانفعال الى السباب تقريبا اذ يقول :

« قال ابـو حامد رادًّا على الفلاسفـة :

« قلنا : مـا ذكرتموه تحكُّمات ، وهي علـى التحقيق ظلمات فوق ظلمات ، لـو حكاه الانسان عن منام رآه ، لاستدلّ بـه على سوء مزاجـه ، أو أورد جنسـه في الفقهيات ، التي تصارى الطلب فيهـا تخمينات ، لقيل : إنهـا ترّهات ، لا تفيـد غلبة الظنون » .

فهي على حـدّ تعبير ابي حامد ، تحكّمـات ... وظلمـات ... وترّهات ... الـخ . وعندما يناقشه ابن رشد ، يقابله انفعالا بانفعال ، وانتقاصـا بانتقـاص .

يقول ابن رشـد في الرد على الغزالي،بعد أن أورد مـا حكاه سابقا : « قلـت : « لا يبعد أن يعرض مثل هـذا للجهال مع العلماء ، وللجمهور مـع الخواصّ ، كما يعرف ذلك لهـم في المصنوعات ؛ فان الصُنّاع ، اذا أوردوا صفـات كثيرة من مصنوعاتهم على العوام،وتضمنوا الأفعال العجيبة عنهـا ، هزىء بهم الجمهور ، وظنوا انهـم مبرسمون ، وهـم في الحقيقة الذين ينزلون منزلة المبرسمين مـن العقلاء ، والجهال من العلماء . وأمثال هـذه الأقاويل لا ينبغي أن نتلقى بها آراء العلمـاء وأهـل النظـر » (٨١) .

---

(٨٠) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٤٠٩ .

(٨١) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٣٢٠ ــ ٣٢١ .

وهكذا فنحن نستطيع ان نصنّف كتب ابن رشد هذه خارج دائرة الخاصة ، وانها موجهة الى العامة من القراء،وهي بذلك تخرج من ميدان البحث الفلسفي الرصين ، الى ميدان المساجلات الأدبية واساليبها ... لقد كتب ابن رشد مؤلفاته هذه وقد وجهها الى العامة ، وفق مفهومه ، يريد اصلاح ما افسدته أقوال السابقين . فهو يحاول اصلاح ما أفسده سابقوه بالتصريح بآراء مُفسِدة ، وتآويل ضالة ، تلقفها غير أهلها ، فعمَّ بذلك ضررها ... (٨٢) .

وفي هذه المساجلة الفكرية ، يقول العقاد : « فلم يحفظ لنا تاريخ الفكر مساجلة بين حكيمين في قوة المساجلة التي دارت بين ابن رشد والغزالي ، ومضاء سلاحهما،ونفاذ حججها،وبراهينها ... » (٨٣) .

ولم يكن ابن رشد في شروحه المشهورة وفي تصانيفه ، العلمية منها والفقهية والادبية ، سوى مفكّر عظيم يُوَجِّهُ جميع طاقاته وجهة انسانية رفيعة ، هَدَفُها الاسمى تنمية الفضائل لدى افراد الأمة ، وخلقُ مجتمع اسلامي قويم .

ونحن نلمس هذه النزعة الواقعية في مختلف مصنفاته،الى جانب تلك النزعة الانسانية السامية .

ونحن،اذا استثنينا بعض الاشارات المقتضبة الى قضايا اخلاقية وسياسية ، نلمحها في بعض مؤلفاته ، كتهافت التهافت ، والكشف عن مناهج الأدلة،وسواها ؛ فقد اقتصر ابن رشد في تآليفه في الاخلاق والسياسة ، على شرح الأخلاق الى نيقوماخس . وجوامع سياسة افلاطون ... (٨٤) . وقد فَصَّل ابن رشد في شروحه هذه ما فعله في شرح الخطابة والشعر . فهو لا يكتفي بشرح الجمهورية ، بل يعمد الى تطبيق بعض مبادئها على الأوضاع السياسية والاجتماعية السائدة في البلاد الاسلامية آنذاك ، وخاصة الاندلس والمغرب .

---

(٨٢) انظر : بين الدين والفلسفة ، ص ١٠١ .
(٨٣) العقاد ، ص ٥٥ .
(٨٤) انظر : نشري ، ص ١١٨ .

فصلاح المجتمع وسعادته ، هو الهدف الأسمى ، الذي كان يرمي اليه ابن رشد في جميع مصنفاته ، العلمية منها والفلسفية واللغوية ؛ فقد ختم كتابه المشهور في ميدان الفقه « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » ، بقوله :

« وينبغي قبل هذا ان يُعْلَم ان السنن المشروعة العملية المقصود منها هو الفضائل النفسانية ، فمنها ما يرجع الى تعظيم من يجب تعظيمه ، وشكر من يجب شكره،و فيهذا الجنس تدخل العبادات ... ومنها ما يرجع الى الفضيلة التي نسميها « عفّة » ... ومنها ما يرجع الى طلب العدل والكفّ عن الجور ... ومنها السنن الواردة في الأعراض ، ومنها السنن الواردة في جمع الأموال وتقويمها ، وهي التي يُقصَد بها طلب الفضيلة التي تسمَّى السخاء،وتجنُّب الرذيلة التي تسمى البخل ؛ والزكاة تدخل في هذا الباب من وجه، وتدخل في باب الاشتراك في الأموال ؛ وكذلك الأمر في الصدقات .

ومنها سنن واردة في الاجتماع الذي هو شرط في حياة الانسان وحفظ فضائله العلمية والعملية ... ومن السنن المهمّة في حيّز الاجتماع السنن الواردة في المحبّة والبغضة والتعاون على اقامة هذه السنن ؛ وهو الذي يسمَّى النهي عن المنكر والأمر بالمعروف ... الخ .. » (٨٥) .

فمن الواضح ان ابن رشد يرى ان الدين يرمي بشعائره واوامره الى غايات انسانية واجتماعية رفيعة ، هَدَفُها صلاح المجتمع وسعادته . وكان لابن رشد ، من خلال ادبه،موقف واضح من اهم القضايا الاجتماعية والسياسية ؛ فقد كان له راي واضح في السياسة، والاجتماع،والتربية،والمراة،وحرية الانسان ؛ ففي مجال السياسة ، فان نظرته كانت مبنية على فلسفة افلاطون ، وقد بسطها في شرحه « جمهورية » هذا الفيلسوف وجوهر تعاليمها ، انه يجب القاء

---

(٨٥) انظر : بداية المجتهد ، ج ٢ ، ص ٤٦٤ .

زمام الاحكام الى الشيوخ والفلاسفة ليديروها بقسط وعدل . ويجب حث الناس على الفضائل بتعليمهم البيان والعلوم التي تثقف العقل (٨٦) .

ويتناول ابو الوليد ثلاث قضايا هي بمثابة المدخل الى علم السياسة ، وهي :

اولا ــ ما هي الشروط التي ينبغي أن تتوافر لكي توجد هذه الفضائل المشار اليها ... اذ ليس الغرض من هذا العلم معرفة ماهية هذه الفضائل ، كما يقول ارسطو ، بل العمل بها .

ثانيا ــ كيف يمكنُ غرسُ هذه الفضائل في نفوس الأحداث ، بحيث تنمو تدريجيًّا ، وكيف تصان بعد أن تبلغ مرتبة الكمال ؟ وكيف يمكن استئصالُ الشر من نفوس الاشرار .

ثالثا ــ ما هي الصفات والفضائل التي تشتدُّ اذا اقترنت بفضيلة ما ، وتضعف اذا اقترنت بفضيلة اخرى ؟ اي كيف تؤثر هذه الفضائل احداها في الأخرى (٨٧) .

وكان ابن رشد يكره الاستبداد العسكري والاقطاعات العسكرية ، ويرى استغناء الدولة عن القضاة والأطباء ، دليلا على انتظام شؤونها . ويقوم مَثَل الدولة الأعلى على عدم الاحتياج الى قاض ، ولا الى طبيب ؛ وليس على الجيش واجب غير السهر على حرس الأمة . وما يحدث لو اكلت كلاب الراعي غنمه ؟ وتُعَدُّ إقطاعات الجيش آفة الدول (٨٨) .

وقد رأى ابن رشد أن الحاكم الظالم هو ذلك الذي يحكم الشعب من اجل نفسه لا من اجل الشعب . وأنَّ شرَّ الظلم ظلم الكهنة ؛ وان احوال العرب في عهد الخلفاء الراشدين كانت على غاية من الصلاح ، « فكأنما وصف أفلاطون حكومتهم ، لما وصف في « جمهوريته » الحكومة الجمهورية الصحيحة التي يجب أن تكون مثالا لجميع الحكومات » .

---

(٨٦) انظر : ريتان ، ص ١٧٠ ، شرح ، ص ٥٩ .

(٨٧) انظر : فخري ، ص ١٢٢ .

(٨٨) ريتان ، ص ١٧٠ ، وهذا النص أورده عن طبيعيات ص ٣١ ــ PRIHERM

ولكنَّ معاوية هدم ذلك البناء الجليل القديم ، واقام مكانه دولة بني امية وسلطانها الشديد ، ففتح بذلك بابا للفتن ما تزال الى الآن قائمة قاعدة حتى في بلادنا هذه (أي الاندلس) . » (٨٩) . أما موقفه من المرأة فهو يساوي بين المرأة والرجل من حيث الطبيعة فيقول : وتختلف النساء عن الرجال درجة لا طبيعة ، وهنَّ أهل لكل ما يفعل الرجال من حرب وفلسفة . الخ ... ، ولكن على درجة دون درجتهم . وهنَّ يُفْقْنَهم أحيانا، كما في الموسيقى ، وذلك مع كون كمال هذه الصناعة يقوم على التلحين مِن قِبَل رجل والغناء مِن قِبَل امرأة . ويدلُّ مثال بعض الدول الافريقية على استعدادهن الكبير للحرب ؛ ولا يُعَدُّ من الخوارق امكان انتهائهن الى الحكومة الجمهورية . أولا يرى ، كما هو الواقع ، ان اناث الكلاب تحرسُ القطيع كما تحرس ذكورها ؟ والى هذا اضاف ابن رشد قوله :

« لا تَدَعُنا حالنا الاجتماعية نبصر كل ما يوجد من امكانيات في المرأة ؛ ويظهر انهن لم يخلقن لغير الولادة وارضاع الأولاد" .

وقد قضت هذه الحال من العبودية فيهن على قدرة القيام بجلائل الأعمال.ولذا فاننا لا نرى بيننا امرأة مزيَّنة بفضائل خلقية . وتمرُّ حياتهن كما تمرُّ حياة النباتات ، وهن في كفالة ازواجهن انفسهم . ومن هنا ، ايضا ، اتى البؤس الذي يلتهم مدننا ؛ وذلك لأن عدد النساء فيها ضعف عدد الرجال ، ولا يستطعن كسب الحاجيّ بعملهن . » (٩٠) .

وتَطَرَّق ابن رشد الى حرية الانسان ، ووصل هذا المفهوم الانساني الرفيع بما ورد عنه في آي القرآن الكريم . فالانسان غير مطلق الحرية تماما ولا مقيَّدُها تماما . وذلك انه اذا نُظِر اليه

---

(٨٩) انظر : رينان ، ص ١٧١ .

(٩٠) رينان ، ص ١٧٠ — ١٧١ وقد نقل النصوص عن « طبيعيات » ص ٢١ (PRIHERM) ، ص ٤٨ .

من جهة نفسه وباطنه ، فهو حُرٌّ مطلق لأن نفسه مطلقة الحرية في جسمه . ولكن اذا نُظِر اليه من جهة حوادث الحياة الخارجية ، كان مقيَّدا بها ، لما لها من التأثير على أعماله . « وهو يقول :" ان هذا هو السر في أن القرآن يجعل الانسان تارة مختارا وتارة مقيَّدا . » (٩١) .

ويسير ابن رشد على منوال أفلاطون في قضايا التربية ، فيحذِّر في مجال تربية الصغار من التمثيل بالحكايات الكاذبة « أي الأساطير » التي ترسخ في اذهانهم مُتفسِد سريرتهم (٩٢) . وهو على مذهب أفلاطون بالتربية الجماعية ، وحاجة الفرد لأقرانه . فقد تبيَّن أن اكتساب المرء لأي من هذه الفضائل دون معونة الأقران مستحيل ، إذ ان الانسان يحتاج الى من عداه ، في اكتساب الفضيلة ؛ فهو كائن مدني بالطبع (٩٣) .

وفي حديثه عن الخصال المكتسبة التي ينبغي على الحاكم أو الرئيس أن يتصف بها ، يرسم ابن رشد منهاجا تربويا واضحا ، فيما يتعلق بالرئيس ، من الطفولة الأولى حتى يبلغ سن الخمسين ، لأنه على حَدِّ تعبيره يجب تفويض الحكومة الى الشيوخ .

فبعد أن يتحدث عن الطفولة الأولى للحاكم أو الرئيس ، يقول : ومنها ، أي من الخصال المكتسبة ، الاقبال على العلوم المختلفة والتوفُّر على دراستها . وتبدأ هذه الدراسة بعلم الحساب ، فالهندسة ، فعلم النجوم ، فالموسيقى ؛ وهي علوم لا تُطْلَب من أجل الكمال الانساني ، شيمة الطبيعيات والالهيات ، بل من أجل إعداد الفكر للاقبال على هذين العلمين ... وحين يبلغ الحكّام سنّ السادسة عشرة أو السابعة عشرة ينبغي أن يُقبلوا على تعلم الفروسية حتى سن العشرين ، وعندها يأخذون بتعلم الفلسفة حتى سنّ الثلاثين . فاذا بلغوا الخامسة والثلاثين دُفِعت لهم رئاسة الجيش ، طوال

---

(٩١) انظر : فرح ، ص ٥٨ .
(٩٢) انظر : فخري ، ص ١٢٤ .
(٩٣) فخري ، ص ١٢٠ .

خمس عشرة سنـــة ؛ فاذا بلغوا سن الخمســين ، باتوا قادرين على الاضطلاع بمهـــام الرئاسة وادارة شؤون الدولـــة ...

أمـــا التربيةُ الأخلاقيةُ لجميع المواطنـــين ، فهي تقوم،في نظر ابن رشـــد ، على تلقينهم الفضيلة بتعليمهـــم الخطابة والشعر والجدل . ولا شكَّ أن فيلسوفنـــا يقصد الانتقاء في مجـــال الخطابة والشعـــر والجدل ، فهـــي وسائل من أجـــل تربية الفضيلـــة في نفوس جميع المواطنين . ومن هنـــا نستطيع أن نفهم قولـــه عندما يُعقّب على ذلك قائلا : « والشعر مفســـد ، ولا سيما شعر العرب » (٩٤) . فـــان ابن رشـــد لا ينال من قيمة الشعر الفنية ، ولـــم يهدف أن ينتقص من شعر العرب من حيث هـــو ، ولكنه يرى أن يختار المربـــي من هذه الأشعار ما يكفل بتلقين الفضيلـــة ، وتربيتها في نفـــوس المواطنين .

العلاقة بـــين الشكل والمحتـــوى :

يشغل الجدل ، بصورة عامـــة،مكانة مهمة من مؤلفات ابـــن رشد . وهو على حـــد تعبير رينان : « يدخل اليـــه من الرشاقة ما هو ممتع . ومما كان يقع أحيانـــا ، أن يرتقي بحماسته العلمية ، وكَلَفِـــه بالفلسفة الى نبرة من الخلقية ، بليغة الـــى الغاية . ويسود الاسهاب شروحـــه، ولكن بـــلا جفاف . وتتجلى شخصية المؤلف فيمـــا يعرف أن يسوقه الى المواضع المهمة مـــن استطرادات وتأمـــلات ... » (٩٥) .

والحقيقة أن هـــذه الاشارات تُكَوِّن اهـــم خصائص ابن رشد في أسلوب كتابته . أمـــا جفاف اسلوبه فلا بـــد لنا أن نستذكر حقيقة مهمة ، حيث أن طبعات كتبـــه في الحقيقة لا تعرض في نصوصهـــا العربية سوى شرح قـــام على ترجمة عربية من ترجمة سريانية مـــن أصل يوناني . أما في نصوصها باللغـــات الأجنبية فهي تقوم على ترجمة لاتينية مـــن ترجمة عبرية . هذا مـــع العلم أن كثيرا من مصنفاته قـــد فُقِدَت أصولها العربيـــة .

---

(٩٤) انظر : رينـــان ، ص ١٧٠ ــ ١٧١ .
(٩٥) رينـــان ، ص ٦٧ .

وان الدارس لادب ابـــن رشد ومصنّفاته يمكن ان يلمـــح ركائز يمكن ان تُميِّز نظـــرة ابن رشد في اسلوبه،من ناحية،وفي فـــن الكتابة،من ناحية اخرى . فهنالـــك طبيعة الجمهور الذي يكتب اليـــه الكاتب ؛ وهذه النظرة رايناهـــا واضحة تماما في ابحاثنا السابقة ؛ فهـــو ينادي بأن على الكاتب أن يكون علـــى بصيرة من نوعيـــة الجمهور الذي يكتب اليـــه ، وبالتالي بنوعية الأفكـــار وطبيعة الأبحاث التي يقدمها الـــى قرائه ، والا وقع في خطيئة كبـــيرة،وأدَّى جهده الى الافســـاد . « فليس كل صنف من اصناف النـــاس ينبغي أن يُسْتَعْمَل معهـــم البرهان ، في الأشياء النظرية التي يراد منهـــم اعتقادها . وذلك إمّـــا لأن الانسان قد نشأ على مشهورات تخالف الحـــقَّ ، فاذا سلك بـــه نحو الأشياء التي نشأ عليها ، سَهُل اقناعـــه ، وإمّا لأن نظرته ليست مُعَدَّة لقبـــول البرهان اصلا ، وإمّـــا لأنه لا يمكن بيانه لـــه في ذلك الزمان اليسير الذي يراد منـــه وقوع التصديق فيـــه ... » (٩٦) .

فهو في ذلك يقـــول بوجود علاقة وثيقة بـــين طبيعة الجمهور وحقائق المعرفة التـــي يمكن أن تُعْرَض عليهم . هـــذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى ، يجعـــل للانفعالات النفسيـــة دورا مهمًّا نحو استمالة الحكام والناظرين ، حيـــث يقول : ... الأشياء المعينـــة في وقوع التصديق ، مثـــل التكلم في الخوف والرحمـــة والغضب،وما اشبه ذلك من الانفعالات النفسانية التـــي ليست مُعَدَّة نحو الأمـــر المقصود تبيينه اولا وبالذات ، وانمـــا هي مُعَدَّة نحو استمالة الحكـــام والناظرين ، ولذلك كانت كأنهـــا مُوَطِّئَة للتصديق لا فاعلة لـــه ... (٩٧) .

ويجعل ابن رشـــد للألفاظ مكانتها في زيـــادة التصديق ؛ وإن هذه المكانة تختلـــف باختلاف طبيعة المعارف ، وذلك على حـــد تعبير ابن رشد،لأن للألفاظ في ذلـــك معونة في زيادة التصديق الحاصـــل عن

---

(٩٦) تلخيص الخطابـــة ، ص ١١ .

(٩٧) تلخيص الخطابـــة ، ص ٥ .

البرهان وقوته ، كالحال في الصنائع الأخرى ، فانها يلفى لها معونة في ايقاع التصديق المستعمل فيها وان كانت في ذلك تختلف .

فأقلُّها حاجةٌ في ذلك صناعة الجدل ، ثم من بعدها صناعة السفسطة ، ثم من بعدها الخطابة ، ثم من بعدها صناعة الشعر . فهاتان الصناعتان أكثر حاجةً الى ذلك ...

وانما صارت الألفاظ والأصوات تفعل في هاتين الصناعتين هذا الفعل من أجل انها تخيل في المعنى رفعة او خسة ، وبالجملة أمرا زائدا على مفهوم اللفظ ، مثل غرابة اللفظ ، فانها تخيل غرابة المعنى ، ولذلك فخامته تخيل فخامة المعنى . والنغم كذلك يفيد فيه هذا المعنى ... وليس يُقْصد ذلك أحد عندما يتكلم على طريق الهندسة ولا على طريق العدد (٩٨) .

فقد ادرك ابن رشد العلاقة الوثيقة بين الشكل والمحتوى ، وقد اقترب في مفهوم ذلك الى المدى الذي لا يرى منه الشكل منفصلا عن المحتوى ، بل ان الصورة مرتبطة ارتباطا عفويا مع المادة . فابن رشد يرى مع ارسطو أن الكون هو تغير في الجوهر ، وانه لا يتكوَّن شيء من لا شيء ، بل من موضوع . وهذا على حدّ تعبير ابن رشد في تفسير ما بعد الطبيعة حيث يقول : "... المذهب الذي أخذناه عن ارسطو ، وهو ان الفاعل انما يفعل المركب من المادة والصورة ، وذلك بأن يحرك المادة ويغيرها حتى يخرج ما فيها من القوة الى الفعل ... » .

ان هذه النظرة الفلسفية للعلاقة بين المادة والصورة قد انعكست تماما في موقف ابن رشد من الأدب بصورة عامة ، حيث يرى المادة متصلة اتصالا عفويا بالشكل،وليست منفصلة عنه . وهي النظرة التي يأخذ بها النقد الأدبي في مناهجه الحديثة .

---

(٩٨) تلخيص الخطابة ، ص ٢٥٣ .

وربما كانت هـذه النظرة الى العلاقة بـين الشكل والمحتـوى ، بين المـادة والصورة ، وتطبيقها علـى الأدب ، وفق مفهومه العقلاني لـه ، اهمّ قضيّتين يمكن ان يطرحهما الدارس لأدب ابـن رشد . أما القضية الأخرى ، فقـد اشرنا اليها فيما سبق،وهـي ارتباط الأدب بالحقيقـة والمعرفة ، في نظـر ابن رشد ...

ابن رشد في مجـال اللغة والبلاغة والنحـو :

كان للُّغة اثـر كبير في تحديد فكر ابن رشـد ، وتطويع نظريات ارسطو وفلسفته الى واقـع الحضارة العربية الاسلامية بمفاهيمهـا وعقيدتها ، بـل الى لغتها وادبهـا .

فقد اعتذر ابن رشـد عن ذكر الأمثلة اليونانية لأنه رآهـا مجهولة تماما لدى القارىء العربـي الذي يتوجّه اليه ، ولا تتـلاءم أيضا مع الجـوّ الاسلامي الذي يكتب لـه ويعيش فيه ؛ على أنـه استبدل بهذه الأمثلة اليونانية نظائرهـا في الاسلام ، فاستشهد بشواهد من الفقه والتاريخ الاسلامي واللغـة العربية ... حيث اراد ان يطبّـق القواعد والنماذج التي يذكرها ارسطو على اللغة والأدب والخطب العربية .. (٩٩).

وكان ابن رشـد يقول منذ البداية ، بأن الشريعـة الاسلامية تحضُّ من خلال الآيـات القرآنية والحديث على النظـر الفلسفي . وهـي توجب استعمال البرهـان المنطقي ، على حـد تعبيره ، لمعرفة اللـه تعالى وموجوداته . ويستشهد على ذلـك بآيات من القرآن الكريم ، فيورد مثلا الآية الكريمة : « فاعتبروا يـا أولي الأبصار » (١٠٠) . ويبيّن أن الاعتبار هنـا ليس الا استنباط المجهـول من المعلوم ، وهو القياس الفلسفي او المنطقـي المعروف (١٠١) .

وبنـاء على هذا الاتجاه ، فقـد استخدم ابن رشد امثلة عربية واسلامية كثيرة في كتـاب « تلخيص الخطابة » وفي كتـاب « الشـعر »

---

(٩٩) انظر : مقدمـة تلخيص الخطابـة ، ص ي .
(١٠٠) صـورة الحشر ٢/٥٩ .
(١٠١) انظر : بين الديـن والفلسفة ، ص ٩١ .

أيضا . وبالرغم من أنهـا شروح لكتب أرسطو ، غير ان ابـن رشد في التلخيص أو التحليل يتكلّـم باسمه الخاص دائما ، فيعرض مذهـب الفيلسوف مضيفا ، حاذفـا ، باحثا في الرسائل الأخرى ما تكمل بـه الفكرة، متّخِذًا ترتيبـا ومنهاجا من اختياره ؛ وهكذا على حـدّ تعبير الفيلسوف الفرنسي « رينـان » : « فان التلخيصات رسـائل حقيقية كرسائل أرسطو » (١٠٢) . ففـي حديثه مثلا عن الأمور المستعملة مـع الألفاظ على جهـة المعونة في جودة التقسيم وايقاع التصديـق وبلوغ الغرض المقصود ، وهي على حـدّ تعبير ابن رشـد نفسه ، التي جرت عادة القدماء أن يُسَمُّوها الأخـذ بالوجوه . فيقول : « وذلـك ان هذه الأشياء ، لمـا كان من شأنها أن تميل السامعين الـى الاصغاء والاستماع والاقبال على المتكلم بالوجـه ، وتفريغ النفس لمـا يورده ، أُستُعير لها هذا الاسم . وهذه الأشياء صنفان : إمّا اشكال ، وإمّا اصوات ونغم . . .

والأشكال، بالجملة ، يقصد بها أحـد أمرين : إمّا تفهيم المعنـى وتخييله الموقع للتصديـق ، كما روي عن النبي ، صلى اللـه عليه وسلم ، أنـه قال في آخر خطبة : « بُعِثتُ أنـا والساعة كهاتين » واشـار باصبعيـه يقرنهمـا . . . (١٠٣) .

وتراه يخرج في شروح الـى دراسات مقارنـة ، فيتحدث عن موقع بعض النظرات البلاغيـة في اشعار الأمم ، ويقارنها بما هـو في لغـة العرب وآدابها . فنرى ابن رشـد يتحدث في موضع آخر مـن « تلخيص الخطابة » فيقـول : « وفيها أيضا أنهـا تُستَعمَل بضرب من الوزن في الكلام الخطبـي . . . وهذا الضرب من النغـم ضروري في أوزان اشعار من سلـف من الأمم ما عدا العرب ؛ فـان من سلف من الأمم كانوا يزنون أبياتهـم بالنغم والوقفات ، والعـرب تزنها بالوقفات فقط . ومنها أيضـا أن تُستَعمَل اشعارا في افتتاح القـول وختمه ومواضع الوقـف . . . » (١٠٤) .

---

(١٠٢) رينـان ، ص ٧٤ .
(١٠٣) أنظر : تلخيص الخطابـة ، ص ٢٥٠ .
(١٠٤) تلخيص الخطابـة ، ص ٢٥١ .

وقد نُظر الى البلاغة بهذه النظرة المبدعة ، حيث استطاع ان يتمثّل نظريات ارسطو من خلال نثر اللغة العربية وشعرها ... ويستخدم، بطبيعة الحال ، الاصطلاحات البلاغية التي سبقه اليها البلاغيون الأعلام قبله ؛ اذ يقول مثلا : « والاستعارة التي تكون من هذا النوع كثيرة موجودة في اشعار العرب وخطبها ، والأقاويل التي يخصّها اهل لساننا من الناظرين في الشعر والبلاغة بالاستعارة هي داخلة في هذا الجنس ، ولذلك يقولون : إن المجاز استعارة وتشبيه » (١٠٥) .

وكان لابن رشد مجال واسع في التعريب ، وكيفية استخدام الالفاظ للدلالة على معان مستجدَّة ؛ وكذلك توليد الكلمات عن طريق الاشتقاق وغيره . فقد ذُكِرَتْ لنا المصادر المختلفة بين قائمة كتبه ، كلاما له على الكلمة والاسم المشتق (١٠٦) .

ففي حديثه عن تأثير الألفاظ والأصوات في الاقاويل يقول : « والذين وقعوا اولا على تأثير هذه الأحوال من الألفاظ والاصوات في الأقاويل هم الشعراء ، وذلك ان هذا المعنى اظهر ما يكون في الأقاويل الشعرية ، مع ان الوقوف على الأقاويل الشعرية هو متقدم بالزمان على الأقاويل البلاغية ... » (١٠٧) .

ويُعمِّق نظرته في استعمال الألفاظ في لغات مختلفة ، فيقول : « وأما اللغات فهي صنفان، احدهما ... مثل ان يستعمل الحجازي لغة حِمْيَريّة ؛ والصنف الثاني ان يستعمل في مخاطبة امة ما ، لفظا ليس من الفاظ اهل لسانهم ، وانما هو من لسان امة اخرى ، مثل ما يوجد في لسان العرب الفاظ كثيرة من الفاظ الفرس والأمم المجاورة لها . وهذا يُستَعمل على وجهين : احدهما ان يأتي بذلك اللفظ بعينه من غير ان يغيِّر بنيته وتركيبه : والوجه الثاني ان يُغيِّره تغييرًا يقرب

---

(١٠٥) تلخيص الخطابة ، ص ٢٦٤ .

(١٠٦) انظر : القائمة التي اوردها رينان ، ص ٤٥٦ — ٤٥٧ . وفق مخطوط الاسكوريال .

(١٠٧) تلخيص الخطابة ، ص ٢٥٣ — ٢٥٤ .

من الأبنيـــة المستعملة في لسانهم ليسهل بذلـــك عليهم النطق بـــه،مثل : السِّجّيل وغير ذلك مما هـــو موجود في كتب اللغـــة (١٠٨) .

فابن رشد يقف هنـــا موقفًا واضحًا ومتميزا ، تجـــاه قضية التعريب ، سواء أكـــان ذلك بإحياء الفاظ ميتة ، مثـــل استعمال الحجازي الفاظا حميرية ، أم استعمـــال اللفظة الأجنبية ، كما هي ، وادخالهـــا الى العربية،من ناحيـــة،او ادخالها بعد اضفاء رونـــق العربية عليهـــا ... وقد أورد لفظـــة « السجّيل » وهي لفظة قـــرآنية ... وهنالك ايضا الفاظ موضوعة ، يحدّدها ابـــن رشد من خلال شرحه فيقـــول : « وهي الألفاظ المخترَعَة في لســـان جنس ما ، يُخترِعها أهل ذلك اللســـان ، على نحو التركيب الـــذي لحروفهم » (١٠٩) . ويبحث « تلخيص الخطابـــة » اللفظة من حيثُ اصـــوات الحروف وتناسقها او عدمـــه . وهنا ايضا ، تمتزج آراء أرسطـــو بآراء شارحه ابن رشـــد ، الى الحد الذي تَرى فيه شخصية الشـــارح واضحة بارزة ، وذلك من خـــلال تقصّياته وإيراده الأمثلة في نطـــاق العربية وحروفها واصواتهـــا،اذ يقول :

« وامـــا المغلّطة فهي الألفاظ التي يعسر النطق بهـــا ، وذلك يعرض لأسباب : منها أن تكون تلـــك الحروف حروفا يُعْسُر النطق بهـــا ، وإن كانت قليلة ؛ ومنها ان يكـــون سبب العسر فيهـــا كثرة الحروف التي رُكّبت منها ، والتـــي يعسر النطق بها ، إمّـــا أن يكون من أجل مخرج الحرف نفسه وأن ينطق بـــه وحده ، مثل كثير من حروف الحلـــق ، وإمّا أن يكون العسر يحدث لـــه عند تركيبه مع غيره ؛ وذلك إمّـــا لتقارب مخارجها ، وهذا هـــو سبب الادغام في لســـان العرب ، وإما لتكرارها ، مثل قولهـــم : « قصصت اظفاري » . ولذلك بعض العـــرب يبدلون احدى الصادين « يـــاء » في مثل هذا . وربما كـــان السبب في ذلك تضادّ المخارج . ولذلك قَـــلَّ في لسان العرب اســـم يوجد على وزن

---

(١٠٨) تلخيص الخطابـــة ، ص ٢٥٧ .

(١٠٩) تلخيص الخطابـــة ، ص ٢٥٩ .

« فِعلى » الا مـــا حكوا من « الفِعلى » . واكثر الانقلابـــات والتغيُّرات التي يضعها النحاة هـــذا هو سببها (١١٠) .

وهنـــا نستبين خصائص نظرة ابن رشـــد في النحو ، وقد كانت لـــه مساهمة فيه . ولا عجب من ذلك ، فالنحو عنـــد أهل الأندلس ، على حـــد تعبير المقّري « في نهاية من علـــوّ الطبقة ، حتى انهم في هذا العصر فيـــه كأصحاب عصر الخليـــل وسيبويه ، لا يزداد مـــع هرم الزمان الا جِدَّة ؛ وهـــم كثيرو البحث فيه ، وحِفْظ مذاهبـــه كمذاهب الفقه . وكلُّ عالِمٍ في أيّ علـــم لا يكون متمكنا من علـــم النحو ، بحيث لا تخفى عليـــه الدقائق، فليس عندهم بمستحقّ للتميُّز ، ولا سالـــم من الازدراء ... » (١١١) .

ولـــم يخرج ابن رشد عن هـــذه القاعدة ، فقد أسهم في هـــذا المجال بكتاب سمـــاه « الضروريّ في النحو » (١١٢) . وان هذه التسمية ، تذكِّرنا بكتاب أبي بكـــر الزبيدي القرطبي الذي وضعه قبـــل ذلك بحوالي قرنين من الزمـــن وأطلق عليه « الواضـــح » .

ذكرت أكثر المصـــادر التي اوردت مصنَّفات ابن رشـــد ، كتابه هذا في النحـــو ، ولكن مع الأسف لم يصل الينـــا ، ولا نعرف عنه شيئا ؛ فربما ما زال تائها فـــي بعض الاقبية او زوايا المكتبات ، وربما فُقِـــدَ الى الأبد كمـــا فُقِدَت مصنَّفات كثيرة من هـــذا التراث الضخم ، نتيجةً النكبات والحروب ومـــا حلَّ بالأندلس مـــن استئصال لجذور حضارة عربية اسلامية اصيلـــة . وإنَّ التسمية بحـــدّ ذاتها « الضروري في النحو » توحي لنـــا باتجاهه العملي ، في استخـــدام ما هو ضروري من قواعد النحـــو ؛ وهذا الاتجاه ينسجم تماما مع طبيعة فلسفـــة ابن رشد العقلانية والواقعيـــة ... وهو في ذلك استمرار لهـــذه المدرسة

---

(١١٠) تلخيص الخطابـــة ، ص ٢٥٨ .

(١١١) انظر : النفـــح ، ج ١ ، ص ٢٠٦ .

(١١٢) انظر : قائمة كتب ابن رشد التي اوردهـــا ريتان ، ص ٤٥٦ ــ ٤٥٧ وفق مخطـــوط اسكوريـــال .

القرطبية ، التي اتّجهت اتّجاها عمليا مناهضةً لتعقيدات النحاة ، وانشغالهم بجزئيات لا فائدة منها .

وجملة القول، فقد كانت لابن رشد جهود طيّبة في مجال البلاغة والنقد ، وفي مجال النحو والاشتقاق، والترجمة والتعريب والشرح ؛ وان هذه المجالات لتستحقّ الدراسة المتعمقة في مصنفات هذا الفيلسوف الاسلامي، الذي كان على حد تعبير ابن الأبار : « كان يُفْزَع الى فتواه في الطب كما يُفْزَع الى فتواه في الفقه، مع الحظ الوافر من الاعراب والآداب » ...

خاتمة

ربما كان ابن رشد من المفكّرين القلائل في الدنيا ، الذين اهملتهم امّتُهم وعُنيت بهم امم أخرى ؛ لقد تجاوزت مصنفات ابن رشد حدود الزمان والمكان ، وكانت ركيزة اساسية في النهضة الأوروبية فيما بعد .

عَرَّفت اوروبا القرون الوسطى ابن رشد باسم (Averroes) وطارت شهرته لديها بالطبّ، من ناحية، وبالفلسفة من ناحية اخرى . وربما كان من الطبيعي أن لا يُعْنَى الفرنج بالجوانب الاخرى في فكر ابن رشد ، في مجال الفقه واللغة والادب . وقد بقيت جميع هذه الجوانب ، مع الاسف، في زوايا الاهمال والنسيان ... ولا شكَّ أن العصور المظلمة التي توالت على الأمة العربية والاسلامية ، كانت تقف وراء هذا الاهمال .

لم يكن ابن رشد فيلسوفا وطبيبا فحسب ، بل كان فقيها مجتهدا ، كما ينمُّ عليه كتابه « بداية المجتهد » ؛ كما كان اديبا كاتبا، يعالج اهم القضايا السياسية والاجتماعية والاخلاقية التي تَمَسُّ كيان امته . وقد سار على درب صديقه « ابن طُفيل » وكثير من الفلاسفة المسلمين الذين سبقوه ، في محاولة التوفيق بين الحكمة والشريعة ، وبين ما يصل اليه من طريق الوحي والرسل ...

ولـــذا فنحن نستطيع ان نعتبر بحـــقٍ ما كتبه في « تهافت التهافت » وفي كتابه « فصل المقـــال » ... وكذلك في « كشف مناهج الأدلَّـــة ... » وغيرها ، من الأدب العقلاني الرفيـــع الذي يحاول الكاتب فيـــه معالجة قضايا انسانيـــة واجتماعية واخلاقية وسياسيـــة ، يهدف من ورائها اصلاح ما فســـد في بنيان هذه الأمـــة .

ولم يقف ابن رشـــد عند هذه الحدود من الأدب ، بـــل تَعدَّاها الى قول الشعر ، والإسهـــام في البحوث اللغوية والبلاغية،ولا سيمـــا في مجال النحو والتعريـــب والاشتقاق والنقد ... الـــخ ... وإنَّ شروحه لمصنَّفات أرسطـــو لم تكن لتقعد بـــه عند حد النقل ، بل كانت تتعداه الى حـــد الابداع في فهم فكر « المعلم الأول » وتَمثُلـــه ، وتطبيقه على بيئته العربية الاســـلامية،ولا أدل على ذلـــك من تعقيبه في خاتمة كتـــاب « تلخيص الخطابـــة » بقولـــه : « وهنا انقضت معاني هـــذه المقالة الثالثـــة ، وقد لخَّصنا منها مـــا تأدى الينا فهمه،وغلب على ظَنِّنا انـــه مقصـــوده ... » (١١٣) .

---

(١١٣) انظر : تلخيص الخطابـــة ، ص ٢٣٢ .

المصـــادر والمراجـــع

ابـــن الأبـــار : ابن الأبار القضاعي البلنســـي ، التكملة لكتـــاب الصلة ، ج ١ ــ ٢ ، القاهرة ، ١٣٧٥ هـ ــ ١٩٥٦ م .

ابن ابي أصيبعة : موفق الديـــن أبو العباس أحمد بن القاسم بـــن خليفة بـــن يونس السـعدي الخزرجـــي المعروف بابن أبـــي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقـــات الأطباء ، بـــيروت ، ١٩٥٦ م .

ابـــن الأثـــير : عـــز الدين أبو الحسن علي ابن أبـــي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحـــد الشيباني المعروف بابن الأثـــير ، الكامل في التاريخ ، ج ١ ــ ١٢ ، بـــيروت ، ١٣٨٦ هـ ــ ١٩٦٦ م .

ابـــن بشكـــوال : أبـــو القاسم خلف بن عبـــد الملك ، الصلـــة ، مصـــــر ، ١٩٦٦ م .

ابن تغرى بردى : جمال الدين أبـــو المحاسن يوســـف تغرى بردى الأتابكي ، النجـــوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج ١ ــ ١٢ ، القاهـــرة .

ابـــن رشـــد : أبـــو الوليد محمد بن احمـــد بن محمد بن أحمد بن رشـــد القرطبي ، بداية المجتهـــد ونهاية المقتصد ، ج ١ ــ ٢ ، القاهـــرة .

" " : أبـــو الوليد ابن رشد ، تلخيص الخطابـــة ، تحقيق عبـــد الرحمن بدوي ، القاهرة ، ١٩٦٠ م .

" " : أبـــو الوليد ابن رشـــد ، تلخيص السفسطـــة ، تحقيق محمـــد سليم سالم ، القاهرة ، ١٩٧٢ م .

ابـــن رشـــد : ابـــو الوليد محمد بن رشـــد ، تهافت التهافت ، ج ١ ــ ٢ ، تحقيـــق الدكتـــور سليمان دنيـــا ، القاهـــرة ، ١٩٦٤ م .

ـــ ـــ : ابـــو الوليد محمد بن أحمد بن محمـــد بن رشد القرطبي ، رسائـــل ابن رشد ، حيدر أبـــاد الدكن ، ١٣٦٦ هـ ــ ١٩٤٧ م .

ابـــن سعيـــد : علي بن موسى ، المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ــ ٢ ، مصـــر ، ١٩٦٤ م .

ابـــن طفيـــل : ابـــن طفيل الأندلسي ، حي بـــن يقظان (لابن سينا وابـــن طفيل والسهروردي) ، تحقيق أحمـــد أمين ، القاهـــرة ، ١٩٥٩ م .

ابـــن العمـــاد : ابـــو الفلاح عبد الحي بـــن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ج ١ ــ ٨ ، مصر ، ١٣٥٠هـ

الأنصـــــاري : ابو عبد اللـــه محمد الأنصاري ، فهرست الرصّاع ، تـــونس ، ١٩٦٧ م .

الذهبـــــي : الحافظ الذهبي ، العِبَر في خبـــر من عبر ، ج ١ ــ ٥ ، الكويـــت ، ١٩٦٣ م .

الضبـــــي : أحمـــد بن يحيى بن أحمد بن عميرة ، بغيـــة الملتمس في تاريخ رجال أهـــل الأندلس ، القاهرة ، ١٩٦٧ م .

رينـــــان : أرنست رينـــان ، ابن رشد ، والرشدية ، ترجمـــة عـــادل زعيتر ، القاهرة ، ١٩٥٧ م .

زيـــــدان : جرجي زيـــدان ، تاريخ آداب اللغـــة العربية ، ج ١ ــ ٤ ، القاهـــرة .

الزركلـــــي : خـــير الدين الزركلي ، الأعـــلام ، ج ١ ــ ١١ .

العقـــــاد : عباس محمود العقاد ، ابن رشـــد ، القاهرة .

الغزالـــي : الامام الغزالـي ، تهافت الفلاسفة ، تحقيق الدكتور سليمان دنيا ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، ١٩٦٦ م .

فـــرح : فـرح أنطون ، ابن رشد وفلسفته ، الاسكندرية ، ١٩٠٣ م .

فخـــري : ماجـد فخري ، ابن رشـد فيلسوف قرطبـة ، بـيروت ، ١٩٦٠ م .

المقّـــري : أحمـد بن محمد التلمساني ، نفح الطيب مـن غصن الأندلس الرطيـب وذكر وزيرها لسان الدين بـن الخطيب ، ج ١ — ١٠ ، بيروت ، ١٣٦٧ هـ — ١٩٤٩ م

موســـى : محمـد يوسف موسى ، بين الديـن والفلسفة ، القاهـــرة .

النباهـــي : الشيخ أبو الحسن بن عبد اللـه بن الحسن النباهي المالقـي الأندلسي ، كتاب المرقبـة العليا فيمـن يستحـق القضاء والفتيـا ، بيروت .

— BROCKELMAN - Geschichte d. Arab. Literatur Ers. Sup. LEIDEN , 1937 .

— The Encyclopaedia of Islam , LEYDEN , 1927 .

— Encyclopaedia of Religion and Ethics , vol. I-VIII , NEW-YORK , 1962 .